

الإمام الدكتور عبد المحليم محمود

العارف بالله
سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّشَيْكِي
حَيَاتِهِ وَآرَائِهِ



دار المعارف

اَجَلٌ جَلَالُهُ

اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ،
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(سورة يونس ٦٢ - ٦٤)

وقال جل شأنه :

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

(صدق الله العظيم)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه
إلى يوم الدين :

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً
كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف
عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم
الكافرين﴾^(١) .

سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

سبحانك لا مهدي إلا من هديته ، وأنت تباركت ربنا وتعاليت
القائل في الحديث القدسي :

« يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » .

لقد خلقت الخلق ويسرّتهم للضرب في الحياة ، وذللت الكون
لهم ، ليمشوا في مناكبه سعياً وراء قوتهم المادي ، وتركت لهم اختيار
الوسيلة الحلال لذلك .

(١) البقرة : ٢٨٦ .

أما الهداية الروحية للفرد والأسرة والمجتمع ، فقد أرسلت لهم رسلاً مبشرين ومنذرين يهدونهم في العقيدة ، وفي الأخلاق ، وفي التشريع ، وفي نظام المجتمع إلى طريق الحق والرشاد : الطريق المعصوم الذي رسمه الحكيم الخبير .

وتوالى الرسل يخلف بعضها بعضاً ، وذلك أن البشر كانت تتغلب عليهم أهوائهم ونزعاتهم ، فيحيدون عن الرسالة إلى غرائز غلبة ، وأهواء ضالة ..

إلى أن أذنت سبحانه بإرسال ما كان ينقص العالم : الإنسان الكامل . الإنسان الكامل في روحانيته ، الإنسان الكامل في خلقه ، وكان بذلك إنساناً كاملاً في مادته التي استجابت إلى الروحانية والأخلاق فكان الإنسان الكامل روحاً ومادة ، وأرسلت معه الكتاب الذي انتهت إليه الكمالات :

أنزلته سبحانه في ليلة مباركة مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ، يهدي للنبي هي أقوم ، عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مبارك : ليذنبوا آياته وليتذكر أولوا الألباب . أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : أحكمت من حكيم ، وفصلت من خبير .

تنزيل من الرحمن الرحيم ، تنزيل من حكيم حميد ، وإنه هدى ورحمة للمؤمنين ، هو للذين آمنوا هدى وشفاء مجيد ، في لوح محفوظ . ويقول عنه رسول الله ﷺ : فيما رواه الترمذي عن سيدنا علي رضي الله عنه :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال :

كتاب الله مبارك تعالى ، فيه نيا من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا تشعب منه العلماء ، ولا يملأه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

والمسلمون يؤمنون بذلك ، ويؤمنون بقوله تعالى :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما ﴾ ^(١) .

ويؤمنون بقوله تعالى :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون ﴾ ^(٢) .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ﴾ ^(٣) .

(١) النساء : ٦٥ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

(٣) المائدة : ٤٥ .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون﴾^(١) .

ومع ذلك فإن إيمانهم هنا كان كلاماً ، مجرد كلام ، لم يطبقوه في حياتهم ، ولم يأخذوا به في سلوكهم ، مع علمهم أن المسلمين حينما استمسكوا به سادوا ، وحينما طبقوه دانت لهم الدنيا :

تسير صحابة فوق رأس الخليفة فيقول لها :

سيرى أنى شئت ، وأمطرى حيث شئت ، فسيأتينى خراجك .

ولكن الغرب نجح فى أن يجعل بين المسلمين والقرآن حاجباً من الثقافة الغربية : الثقافة الفكرية البشرية ، الثقافة التى تتغير وتبدل فى كل حين .

الثقافة التى تخطئ نفسها فى كل عام ، التى تخرع اليوم ما ترفضه فى الغد ، وتعود فى الغد إلى ما رفضه بالأمس ، وتضفى عليه ثوباً من الجدة المزيفة ليبل بعد لحظات .

وما من شك فى أن كل من يقرأ تاريخ الثقافة الغربية منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى الآن يجد الأمر كما وصفنا .

ويجد أن هذه الثقافة باعتبار أساسها ، وباعتبار موضوعها تسير بالإنسانية نحو الهاوية .

إن أساس ثقافة الغرب لا يتسم بالأخلاق ، ولا يتسم بطابع الفضيلة ، وإنما يدرس الأخلاق على أنها عادات ، والفضيلة على أنها اصطلاح

(١) المائدة : ٤٧ .

اجتماعي ، ومن هنا كانت ثمار ذلك الانحدار الجارف نحو التحلل من كل القيم الأخلاقية ، ومن مكارم الأخلاق .

ومن وراء كل ذلك اليهود ، تشكيكاً في العقائد ، وتشكيكاً في القيم الأخلاقية ، وإشادة بالكثير من الرذائل : يتمسحون في « الحرية » وكأنها المبرر السحري الذي يشفع لكل انحراف .

واليهود حينما يسرون بالبشرية نحو الانحدار ، إنما يسرون حسب منهج مخطط محكم ، وهو النزول بالإنسانية إلى مستوى يجعلها لا قيمة لها ..

وحينئذ يسود اليهود ، ويملكون ويسيطرون .

ولقد استجاب الغرب لليهود وهو الآن في طريق الانحدار : خمر ، ونساء ، وفضائح ، وقنابل ذرية ، ووابل من الميكروبات والأوبئة : مكس مخزون للاستعمال حينما تفقد البشرية رشدها ، وتقوم الحروب المدمرة ، والعياذ بالله ..

لقد استجاب الغرب لمكر اليهود وخداعهم ، وأخذ في الانحدار . ولقد فلسف الغرب الأساس الذي يقوم عليه الانحدار : وعنون الفكر اليهودي الأسس المزيفة لهذا الانحدار في كلمات : الحرية ، والعلم للعلم ، الأدب للأدب . وتحت شعار الحرية يمكنك أن تقول ما شئت ، وأن تفعل ما شئت ، خصوصاً في العري والجنس .

وتحت شعار العلم للعلم لا يكون من شأن العلم أن يسير لأهداف من الفصيلة ، وتحت شعار الأدب للأدب ، تكون الإشادة بكل ما يتنافى مع الأخلاق : مباحة ، ما دامت في ثوب الأدب وتحت شعار الأدب للأدب ، ومن ذلك الأدب المكشوف ، ومسرحيات الترفيه ، على أي وضع ، ومى أية صورة .

لقد استجاب العرب للحيث اليهودى ، ولا كان الغرب يستمتع الآن بالقوة والسيطرة فإن ثقافته الطرية الحالية تحمل في نفسها عوامل الفناء .

* * *

ونحن فى عالمنا الإسلامى مارك نقاوم ، وإذا كان الغرب قد فقد الشعور بالصميم الأخلاقى فى عالم الجنس والعرى والمرأة ، فمارال المسلمون يشعرون بأن ذلك رذيلة .

بيد أن مقاومة التيار اليهودى فى عالمنا الإسلامى ليس من السهولة بمكان ، ولا ماص من تكاتف العاملين للحير ، المهادسين للإلحاد ، القائمين فى وجه الرديئة حتى يتمكنوا من صد التيار - إذا قدر هم ذلك الذى يأتى فى صورة الأفلام الحليعة ومسرحيات الماجنة وعن طريق الإذاعة ، وعن طريق التليفزيون ، وعن طريق كتب الجنس ، وعن طريق المحلات التى تصدر حصيصاً للدعوة للرديلة بأموال اليهود ، وبأقلام اليهود ساهرة أو مستحفية .

لا بد من أن يكاتف العاملون للحير ، لا بد من تكاتفهم حتى ولو لم يكن الأمل كبيراً فى ثمرة مجهودهم .

فلقد سبقهم في مجال الهداية قوم تحدث عنهم القرآن ، وأبان أنهم لم يأسوا من هداية الآخرين مع علمهم بأن الله مهلكهم ... وعسى ... وعسى أن يتقوا ، يقول سبحانه :
﴿وإذ قالت أمة منهم لم نعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا .

قالوا : معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون .
فلما سوا ما ذكروا به ، أنحننا الذين ينهون عن السوء ، وأحدنا الذين ظلموا بعداب بئس بما كانوا يفسقون﴾^(١) .
وفي هذه الآيات الكريمة يبين الله سبحانه أنه لا يأس في مجال الدعوة وأنه سبحانه يكافئ الدعاة بمكافأة كريمة هي : السجاة ، إنه سبحانه يكلوهم عنايته فينجيهم من العذاب .

وهذا الكتاب حلقة جديدة تساهم - مع ما سبق أن كتبنا - في مقاومة تيار التحلل وتيار الرذيلة .
والشخصية التي كتبنا عنها شخصية من الشخصيات الخالدة : إن سهل بن عبد الله التستري كان وما يزال ولن يزال مصدر إشعاع روحي بما رسم من

١ - طريق المعراج إلى الله سبحانه .

٢ - وينصالة لتصرة أهل السنة

(١) الأعراف ١٦٤ - ١٦٥ .

- ٣ - وبما كتبه مؤيدًا طريق الأتباع والافتداء برسول الله ﷺ .
- ٤ - ولقد اتصل بالقرآن عن قرب وتأمله في تدبر فألهمه الله هذه الإشارات العسية التي استفضنا في ذكرها في نهاية هذا الكتاب .
- ونرجو الله سبحانه أن يهدي لهذا الكتاب وأن يهدي به ، وأن يشرح له صدورًا ويشرح به صدورًا ، إنه سميع قريب مجيب .

المؤلف

البَابُ الأول

الفصل الأول : حياته

الفصل الثاني : الزهد والورع

الفصل الثالث : السياحة الدينية

الفصل الرابع : كراماته

الفصل الخامس : سهل ومجالات علم التوحيد

الفصل الأول حياته

إن لله في كل عصر عبداً قد تحققوا بالعبودية ، واستجابوا لله ، سبحانه ، في قوه تعالى :

﴿وما خلقت الجن والإانس إلا يعبدون﴾^(١) .

وها هو الشيخ الجليل : محمد بن سوار ، قائم في جح من الليل ، يتل إلى الله ، ويتضرع إليه ، ويتأجيه سبحانه .

وها هو ذا قائم يصلي في خشوع . ويدعو في حصوع العبد الملتحي إلى مالك الملك ذي الجلال والإكرام .

إنه يشعر بسعادة لأحد لها في حنوته هذه ، متأجياً ومتفكراً ومتأملاً : لقد رضى عن الله ، فرضى الله عنه ، فشر بسحاب الرحمة بفيض عيه من الملاء الأعلى ، من خزائن رحمة الله التي لا تعد ، ويستعرق لشيخ وتغمره البهجة ... ويرى هذا المنظر ، سهل بن علي التستري ، وهو غلام صغير بيروقه ويعجبه ، ويملاً قلبه سكية وهدوءاً وطمأنينة ، فيلازم خاله .

يقول سهل ، فيما يرويهِ القشيري « كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم الليل أنظر إلى صلاة حالي : محمد بن سوار ، وكان يقوم الليل » .

(١) الداريات : ٥٦ .

ويشفق الشيخ على العلام أن يصيبه برد ، أو أن يكون عدم النوم سبباً في ضعفه ، ويشعل ذلك فيه : رحمة بالعلام وشفقة عليه ، فيأديه أحياناً : يا سهل : « اذهب فسم فقد شعلت قلبي » ..

ويحاول العلام الاستمرار إرضاء لرعته ، ويحاول الدخاب إلى النوم إرضاء لحاله ... ، . ويتأرجح بين هذا وذاك ، وتغلب الرغبة أحياناً ، وأحياناً تغلب إطاعة خاله ، ولكن الأيام تمر . والعلام يحصر خلوة حاله ، ويألف حاله وجوده بحواره ، ويألف العلام ملازمة خاله في تهجده وعبادته ، ويتولد بينهما ود من نوع آخر غير ود القرابة والدم ، يتولد بينهما ود روحى عميق - على الرغم من فارق السن - وما كانت الصلاة الروحية في يوم من الأيام تتوقف على التعادل أو التقارب في السن . وبدأ هذا الود الروحي يتلور في يوم من الأيام حينما قال الخال يا سهل ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ !

وأحس العلام فحة بالعطة تملأ جوانحه ، وبالسعادة تشق طريقها إلى قلبه : ها هو ذا خاله يطر إليه نظرة تقدير ، إنه أصبح فى نظر خاله أهل لأن يُوجّه ، وأن يوضع على الطريق الذى يسير فيه حاله . هل يتأنى فى يوم من الأيام أن يسير فى الحياة على غرار حاله ، وأن يباحى بها إله الذى يسجيه حاله ، وأن يتكشف له السر العامض الذى يحدث خاله فى سحرة الليل ، ويتشله من لذيذ لرقاد ، ليقف عابداً متنبلاً ؟ ! وتملاً الآمال الغامضة ، والسعادة الطارقة قرب الغلام ، وتأخذه الخيرة والبهجة على ألا تمر الفرصة ، فيسأل فى غير تردد ولا فتور سؤال مستجيب راض معتبط : كيف أذكره ؟

ويجيب الحال : قل بقلبك ، عند تقلبك في شاك ، ثلاث مرات
من غير أن تحرك به لسانك : « الله معي ، الله باظر إلي ، الله
شاهدي » .

ويقول سهل هذا الورد ثلاث ليال بالدقة التي أَرادها خاله ، ويتحدث
عن نفسه فيقول : « ثم أعلمته » . فقال لي :

قل في كل ليلة سبع مرات .

فقلت ذلك ، ثم أعلمته ، فقال لي :

قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة .

فقلت ذلك ، فوقع في قلبي حلاوة .

فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي :

احفظ ما عديتكَ ، ودم عليه إلى أن تدخل القصر ، فإنه يتبعك في
الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سبع ، فوجدت لها حلاوة في
سرى ثم قال لي خالي يوماً :

يا سهل ، من كان الله معه ، وهو باظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟

إياك والمعصية .

مكنت أحلو ..

لقد كان في سن مكرة ، يخلو متعدياً ، متهمحداً ، ذاكرًا .

لقد ذاق حلاوة الذكر بهذا الورد الحالد الذي عرف فيما بعد بورد
سهل ، وذاق حلاوة الأذكار المأثورة ، وذاق حلاوة الخلوة على وجه
العموم .

ولكن ارمن يمر ، وها هو ذا العلام قد بيع الس الذي يذهب فيه
أقرانه إلى الكتاب .. ولا بد - والتقاليد تقصى بدلت - من أن يذهب
إلى الكتاب ليحفظ القرآن وليفقه شيئاً من معانيه .

ونكن سهلاً . لا يأخذ الأمر بالسهولة ، التي يأخذ بها القلمان ،
ولا بالعطية التي تكون شعورهم فيما يستقلونه من حياة جديدة : إنه
يتردد ، ويتباطأ ، ويحشى .

يحشى ماذا ؟ وماذا في الذهاب إلى الكتاب من ضير ؟

إنه يصارح أهله ، ويعلى حشيته سافرة لا لبس فيها ، ويشترط
شروطاً إذا تحتم أمر الذهاب إلى الكتاب فيقول :

إني لأحشى أن يتفرق على همى ، ولكن شارطوا المعلم أني أذهب
إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

لقد ألف الخلوة ، فيها يتجمع الذهن ، وفيها يتركز الفكر في
المذكور ، وفيها يجد للذكر لذة ، ويحد للصدر انشراحاً فإن كان
لا بد من الكتاب فليكن على نسق يجمع الحير من أطرافه ، ليكن للكتاب
ساعة وللخلوة الباقي

ودخل في الخلوة عصر حديد . هو الذكر بالقرآن ، ويحد سهل
في القرآن اسور ، ويحد في القرآن الهداية ، فيجد في حفظه .

وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين .

ولم يترد في هذه الأثناء ورده الحلال . الله معي ، الله باطر إلى ،
الله شهدي كما لم يتركه طيل حياته .

لقد كان هذا الورد شعاره حتى ليقول ابن أبي ساعدة
 كان الحالس إلى سهل يكاد يسمع دقات قلبه كلمات ورده .
 وعن هذا الورد ، يقول صاحب الكواكب الدرية :
 وهو ورد عظيم الشئ ، حربه أهل العرفان ، لكان الترياق الفاجع
 دائماً ويمول الشيخ الأكبر ابن عربي في فتوحاته عن هذا الورد :
 دخلت الخلوة بورد سهل ، ففتح لى به فى ليلة واحدة وفيه أسرار
 عجيبة ، وأدواق غريبة :
 ومن أكثر من ذكره حبست له الطاعات ، وبغضت إليه المكرات
 ومن ذكره كل ليلة سبع مرات ، وهو فى فراشه ، وجد له حلاوة
 فى سره .
 ويذكر المناوى فى الكواكب الدرية عن هذا الورد :
 « قال بعضهم ، ومن تعلق به لم يعجزه شيء من الموجودات » :

الفصل الثاني الزهد والورع

إن رياضة سهل للآن . ذكر وقرآن ، فضلاً عن العادة المفروضة والسنن المطلوبة - بيد أن عصرًا جديدًا دخلها ، لم يكن جديدًا في نوعه . وإنما كان جديدًا في استمراره ودوامه . ذلك هو الصيام ، لقد أخذ سهل في الصيام ، لقد أخذ في صيام الدهر ، وهو لم يبلغ بعد العاشرة .

أما قوته في هذه الفترة ، وأما إبطاره ، فإنه خبير وشعير ، ولقد تكيف جسمه بالجوع حتى ليرى أنه كان يصح إذا جاع ، وبمرص إذا شبع ، وإن من كان قوته المذكور ، وعداؤه النور ، فإن القليل من القوت المادى يكفى . لقد كان يعيش في الأغلب الأعم من حياته على الماء وخبز الشعير .

واستمر سهل في حياته رتبة ذكر ، وعبادة ، وصوم إلى أن بلغ الثالثة عشرة من عمره .

وفي هذه السن كان الأمر الهائل في حياة سهل ، لقد حدثت له مسألة أدهلته مسألة لم يدرك لها تعليلًا ، ولم يفهم لها تفسيرًا ، لقد حيرته ، فسأل أهله أن يبعثوه إلى البصرة ، عنه يحدد عند أحد من عارفيها تفسيرًا أو شرحًا وتوضيحًا : يقول سهل :

« فبحثت البصرة ، وسألت علماءها ، فلم يشف أحد منهم عني شيئًا » وتملك الحيرة سهلًا ، فيعادر البصرة إلى عبادان .

يقول سهل :

« فخرجت إلى عبادان ، إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني : فسألته عنها ، فأجابني .

وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه . وأتأدب بآدابه .

هذه المسألة يتحدث عنها الشيخ الأكر . فيقول :

كان بدء سهل في هذا الطريق « سجود القلب » .

وكم من ولي كبير الشأن ، طويل العمر ، مات وما حصل له سجود القلب ، ولا علم أن للقلب سجوداً مع تحققه بالولاية ورسوم قدمه فيها ، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبداً من سجده فهو ثابت على ثلث القدم الواحدة التي تتفرع منها أقدم كثيرة .

وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال ، ولهذا سمي : قلباً وصاحب هذا المقام وإن تقببت أحواله ، فمن عين واحدة هو عليها ثابت يمر عليها بسجود القلب .

ولهذا لما رأى في ابتداء دخوله الصريق أن قلبه سجد ، وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقى حائراً ، فماراں يسأل شيوخ الطريق عن واقعه ، وما وجد أحداً يعرفها ، فإنهم أهل صدق ، ولا يطقون إلا عند ذوق محقق .

قيل له . إن في « عبادان » شيخاً معتبراً لو رحلت إليه ؟ ففعل ، فقال له أيها الشيخ أيسجد القلب ؟ فقال . إلى الأبد .

فوجد شفاء عمده ، فلم يخدمته ، فالتف تعالى ، يؤتى ما شاء من علمه من يشاء من عباده » :

﴿يلقى نروح من أمره على من يشاء من عباده﴾^(١) .
ويحدد الشيخ الأكبر مقام سهل رضى الله عنه بأنه السجود ، فيقول :

مقام سهل سجود القلب ليس له
فى غير سهل من الأكران أحكام
لا يرفع القلب رأساً بعد سجده
والوجه يرفع والتغير إعلام
فإنه غير مشهود بقبلته
وقبه القلب أسماء وأعلام
تبدى حقيقته تأييد مجده
وماله فى علوم الخلق أقدام

وهذه الحالة تسمى ، فيما يروى الشيخ الأكبر ، سرلة التمكين ،
وتسمى : مرل العصمة .

(١) عامر : ١٥ .

الفضل الثالث

السياحة الدينية

وعاد سهل إلى تستر : عاد ليستمر في الاتحاه الكامل إلى الله ،
وعاد يتابع طريقه في العاده والذكر والصيام
لقد عاد مطمئناً . أن قلبه ساجد ، وكيانه كله حاصع ، لقد أصبح
سجوداً وخشية وتواضعاً لله ، سبحانه .

ووجد للصيام نوراً فواصل وطوى اليومين والثلاثة وطوى أكثر من
ذلك ، وفي كل يوم كان يزداد نوراً على نور
واستمر على ذلك عشرين سنة ... ثم ...

يقول سهل : ثم خرجت أسبح في الأرض سين .

وكانت السياحة في ذلك الرمن من الأمور الجوهرية بالنسبة لرجال
العلم وبالنسبة لرجال الطريق ، وسواء كن بصدد هؤلاء أو أولئك فإن
السياحة بالنسبة لهم إنما هي سياحة دنية يريدون بها وجه الله ويتغنون
بها مرضاته :

أما ضرورة السياحة بالنسبة لرجال العلم ، فذلك أن الأقطار
الإسلامية توزعت الاختصاصات المتخصصة ، فأكثر علماء الفقه
مثلاً في مصر ، وأكبر علماء التوحيد مثلاً في الحرم المكي ..
وهكذا .

وكان العالم يسافر ليتلقى العلم على المتخصص ، ثم يسافر ليتلقى على مخصص آخر فى علم آخر وهكذا .. بل كان العالم يسافر ليصحح حديثًا واحدًا ، أو بضعة أحاديث .

وما كان اهدف فى كل ذلك إلا ضبط العلم وتحرى الصحة فى الآثار وكانوا يصعبون ذلك فى قائمة ما يتقرب به العالم إلى الله ، سبحانه وتعالى ، هدا نوع .

أما النوع الثانى من السياحة : فإنه كان سياحة تبلى وتحنث : إن الشخص فى أهله ودويه مشغول بهم ، مشغولون به ، إن أفكاره مزرعة ، وإن آراءه مشتتة متى يحلو إلى الله ؟ ومنى يكون فى جو من الاطلاق نحو الملاء الأعلى لا يحول دون ذلك مال ولا ولد ؟ متى يأتى به طلب لحن ، خالى الفكر ، صافى الدهن ؟

إن كل ذلك يتاح له بالسياحة ، والسياحة المتجردة

ولقد كان الصوفية يسيحون عادة ، ويسيحون استراحة من أنوار قوم قترىوا من ربهم وسبقوا فى السمر إليه ، ويسيحون استرشادًا فى الطريق وصلًا للبركة ، ويسيحون للتأثير الروحى بالجلوس إلى أرباب المقامات العالية ، واسازل السامية .

وبعض الناس يسيح طلبًا للملذات ، وبعضهم يسيح طلبًا لمشاهدة أماكن مادية م يشاهدها من قبل ، وبعض الناس يأخذ أحارة فى الصيف كل صيف ليكشف عورته عن شاطئ البحر ، ويرضى نأ تكشف بته وروحته عورتها على الشاطئ أيضًا ، تحت الأظفار - كل الأظفار - التى لا تتورع عن الإثم ولا عن السطر الفاسق

أما أسلافنا ، رضى الله عنهم ، فقد كانت أسفارهم سياحة في طلب الحق علماً ، وسياحة في طلب الحق عبادة ، إنها كانت سياحة إلى الله .

وقد كانت سياحة سهل رضى الله عنه سياحة علم ، وسياحة عبادة لقد كان عملاً عابداً ، فكانت هجرته إلى الله ورسوله . وبعد هذه السياحة رجع إلى « نستر » .

الفصل الرابع كراماته

رجع إليها على نور من ربه ، يدعو إلى الله على بصيرة .
ولم يبدأ سهل في الدعوة إلى الله إلا بعد أن أدن الله له .
روى صاحب كتاب : « صفة الأنبياء ومراتب الأصفياء » بإسناده ،
قال :

« ذكر سهل التستري وهو ابن ثلاث سنين .
وصام وهو ابن خمس سنين .
وترك الشهوات وهو ابن سبع سنين .
وساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين .
وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها
إلا عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة .
وحينئذ ظهرت عليه الكرامات ..

وما من شك في أننا لا نكاد نعلم شيئاً عن حياة سهل الشخصية
ولكننا أخذنا نتلمس في المصادر من الأحبار القليلة السائرة ما قد يلقي
بعض الضوء على حياته ، نذكر من ذلك ما يلي :

يقول سهل . « لي أربعون مئة أكرم الله والناس يظنون بي
أكرمهم » .

ويقول جامع تفسير سهل :

« وصلى » سهر « صلاة العتمة فقرأ قوله تعالى : ﴿ وَسْقَاهُمْ رَبِّهِمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ فحصل بحرك فاه كأنه يحصر شيئاً ، فلما فرغ من صلاته ، قبل له : أتشرب في الصلاة ؟

فقال . والله لو لم أجد لذته عند قراءته كأني عند شربه ما فعلت ذلك .

ومثل عن قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾^(١) فقال : هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى ، وفيها اسم الله الأعظم ، وهو مكتوب بالور الأحضر في السماء سحراً واحداً من المشرق إلى المغرب كنت رأيته كذلك في ليلة القدر مكتوباً وأنا بعبادان .

« لا إله إلا هو الحي القيوم » انتهى

ومن الطرائف التي تروى عنه أنه :

« كان يداوى الناس ، ولا يداوى نفسه من الأمراض ، فعوتب فيه ،

فقال : « ضربة الحبيب لا تؤلم » .

ويقول المؤرخون عن سهل :

كان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم في كل جمعة مرة كيلا يضعفوا عن العبادة ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوى ، وكان يعرق في البرد الشديد في الشتاء وعليه قميص واحد ومما يروى عنه من الغرائب ، أو الطرائف :

(١) آل عمران : ٢

قال سهل : « واني لأعرف رجلاً من أولياء الله تعالى اجتاز برجل مصلوب وجهه إلى غير القبلة ، فقال :
أي ذلك اللسان الذي كنت تقول به صادقاً : « لا إله إلا الله » ؟
ثم قال : اللهم هب لي دنيه .

قال سهل : فاستدار له نحو القبلة بقدره الله انتهى .
وقال : احتضمت برجل من أصحاب المسيح عليه الصلاة والسلام ،
فرأيت عليه جبة صوف فيها طوارة ؛ وقال لهذه من أيام المسيح عليه
السلام سبعمئة سنة ، فعجبت .

فقال : الأبدل لا تحلق ثيابهم ، وإنما يحلقها رائحة الذنوب ومطاعم
السحت ، وبذلك قيل : إن للحصر عليه السلام إزاراً ورداء لا يبيان
ولا يحلقان .

وبلغ من أمره في تقدير الناس أن قيل له :
لقد آتاك الله الحكمة ؟ فقال :

قد أوتيت إن شاء الله الحكمة وعيياً علمت من عيب سره ، فأغثنى
عن علم ما سواه ، وأل إن ربك المستهي ، وبإتمام ما بدأني به من
فضله وإحسانه .

وألف سهل كتباً ، يقول صاحب الكواكب :
« وله تصانيف نفيسة منها رقائق الخبير ومواعظ العارفين ،
وجوابات أهل اليقين ، وغير ذلك .

وفي آخر أيام سهل ، يروى المؤرخون ما يلي :

« كان يسمع القرآن وغيره ، فلا يتحرك ، فلما كان أواخر عمره صار يتواجد ويقول :

ضعفا والله عن التحمل ، وصار واردا أقوى ما »

وقال ابن سالم :

خدمت سهل بن عبد الله ستين سنة فما تغير في شيء من الذكر أو غيره ، فلما كان آخر يوم من عمره قرأ رجل بين يديه هذه الآية : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾^(١) فرأيته ارتعد واضطرب حتى كاد يسقط ، فلما رجع إلى حال صحوه سأله عن ذلك وقلت .

لم يكن عهدى بك هذا ؟ فقال :

عم يا حبيبي قد ضعفت ، فقلت :

ما الذى يوجب قوة الحال ؟ فقال :

لا يرد عليه وارد إلا وهو يتبعه بقوته ، فمن كان كذلك لا تغيره الواردات ، وإن كانت قوية

وكان يقول « حالى فى الصلاة وقيل الدحول فيها سواء ، وذلك أنه كان يراعى قلبه ، ويراقب الله تعالى بسره قل دحوله فيقوم إلى الصلاة بحضور قلبه ، وجمع همته » .

ولقد دحل سهل على رجل من عدد مسرة ، فرأى عنده بليلة فى قمص ، فقال : لمن هذه السيلة ؟

(١) الحديد : ١٥

فقال : لهذا الصبي ، كان ابنًا له .

قال : فأخرج سهل من كفه دينارًا ، فقال :

بُنَيَّ أيهما أحب إليك : الديار أم البليلة ؟

فقال : الديار ؛ فدفع إليه الديار وأطلق البليلة .

قال : « فقم البليلة على حائط الدار حتى يخرج سهل فاحمل يرفرف فوق رأسه حتى تدخل سهل داره ، وكان في داره سدره ، فسكنت البليلة السدره فلم تزل فيها حتى مات ، فلما رفعوا جنازته جعلت ترفرف فوق جنازته والناس يكون حتى جاءوا بها إلى قبره ، فوقفت في ناحية حتى دفى وتفرق الناس عن قبره ، فلم تزل تضطرب على قبره حتى ماتت فدلفت بجبهه » .

وفي ليلة الجمعة من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، أذن مؤذن الفجر بالصلاة ، فلم يتحرك سهل ؟

فصاح أهل بيته : مات سهل ، فما كان لمؤذن أن يرتفع صوته بداء التكبير دون أن يقول سهل :

« ليك اللهم ليك »

وروى أبو الحصين الحمصي في كتابه - بهجة الأسرار - أنه لما مات سهل ، انكب الناس على جنازته حتى ماجت الطرقات بالناس ؛ وكان في البلد يهودى نيف على السبعين ، سمع الضحجة فخرج ليظهر ما كان ، فلما نصر إلى الجازة ، صاح أترون ما أرى ؟ فقال له الناس :

ماذا ترى ؟ قال :

أرى أقوامًا يرلون من السماء يتمسحون بالججارة ؛

« ثم تشهد وأسلم »

أما المبدأ الذى عاش ومات وهو شعاره الذى يشره بين الناس ،
والذى نختم به حياته ، فقد عبر عنه بقوله :

« الأصل الذى أنا أدعو إليه قولى : اتقوا يوما لا لبنة بعده ، وموتاً
لا حياة بعده والسلام » .

تقدير العلماء لسهل :

والآن نذكر تقدير بعض العلماء له :

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

أحد أئمة القوم ، لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات مع الله
وفى الورع ، وكان صاحب كرامات .

ويقول صاحب كتاب الكواكب الدرية :

الشيخ الأمين ، الناصع المكين ، الناطق بالعقل الرصين ، من أعظم
أشايخ المشهورين ، ولم يبرز للناس حتى وقع الإذن له من الله ، وطلعه
على مراده وأسمائهم وأنسابهم ومن يفتح عليه منهم ومن يموت قبل
الفتح .

حبر تجمل الإسلام بوجوده ، ورين طريق الصوفية بفلائد فوائده
وعقوده ، وكان أوحده زمانه فى علوم الرياضيات .

ومن قبل هؤلاء كتب أبو نعيم الأصفهاني المحدث المشهور يقول :

مهمهم الشيخ المكين ، الماصح الأمين ، انطاق الرصير أبو محمد
سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري .
تخرج عن حاله محمد بن سوار ، ولقى أبا الفصل دا النون المصري
بالحرم .

عامة كلامه في نصفية الأعمال ، وتنقية الأحوال عن المعائب
والإعلال .

ويقول أبو عبد الرحمن السلمي :

ومهم سهل بن عبد الله التستري ، وهو سهل بن عبد الله بن يونس بن
عيسى بن عبد الله بن رفيع ، وكنيته أبو محمد .
أحد أئمة القوم وعلمائهم . والمتكلمين في علوم الرياضات
والإخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول العالم الحليل الذي جمع تفسيره ما يلي :

وكان من طريقه وسيرته أنه كان كثير الشكر والذكر ، دائم
الصمت والفكر ، قليل الخلاف ، سخي النفس ، قد ساد الناس
بحس الخلق والرحمة والشفقة عليهم ، وانصيحة لهم ، متمسكاً
بالأصل ، عاملاً بالفرع . قد حشى الله قلبه نوراً ، وأنطق الله لسانه
بالحكمة ، وكان من حير الأبدال ، وإن قلنا من الأوتاد ، فقد كان
القطب الذي يدور عليه الرحي ، وبولا أن الصحابة لا يقاس بهم
أحد لصحتهم ورؤيتهم لكان كأحدهم ، عاش حميداً ، ومات عريئاً
بالبصرة ، رحمه الله تعالى ..

ويقول المستشرق الدي كتب مادة « سهل التستري » في دائرة المعارف الإسلامية :

« متكلم وصوفى من أهل السنة .. كان زاهدًا لا يجيد قيد أسئلة عن « قواعد الحق » كما كان متكلمًا تزود من العلوم العقلية بزاد وافر » ...

ويقول صاحب كتاب « عقد الحمام » -

الصالح المشهور ، ولم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات ، ولقى دا النون المصرى وله اجتهاد وافر ورياسة عظيمة

ويقول صاحب « شذرات لذهب » :

القدوة العارف .. له مواعظ وأحوال وكرامات ، وكان من أكبر مشايخ القوم .

وهكذا بلغ سهل بعلمه وصلاحه هذه المراتبة الرفيعة عند العلماء والصالحين .

والآن نأخذ في رسم الطريق كما رسمه سهل رضى الله عنه

الفصل الخامس سهل ومجالات علم التوحيد

يقول الله تعالى . ﴿ليس كمثله شيء﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾^(٢) .

ويقول الإمام ابن عبد البر متأسفاً مع القرآن الكريم :

إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بمثال ، أو بامعان نظر ؟
ولقد تورع الكثير من ساداتنا العلماء عن الحديث في ذات الله سبحانه
إلا بما ورد في النصوص ، ويقولون في كل ما يتصل بالذات من
النصوص :

« آمننا به على مراد الله » .

أما التحديد والتفسير والتأويل بالرأى والعقل والفكر البشري فإنهم
يعيدون عن ذلك ، وشعارهم في ذلك قوله تعالى :

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾^(٣) .

ولقد اتجه علماء الإسلام الأول إلى إحياء الإيمان في النفوس ، وزيادته
في اقنوب عن طريق السير على أسبوب القرآن في العظة والعبرة .

(١) الشورى ١١

(٢) الصافات : ١٨٠

(٣) الصافات . ١٨٠ .

ولكن فريقاً من الناس اتجهوا إلى البحث في التشبيه ، والمتشابه هو كل ما يتصل بالذات الإلهية التي لا تدرك بمثل ولا بإمعان نظر . ولقد حاول سهل رضى الله عنه أن يعود بالأمر إلى الوضع الصحيح في هذا الموضوع ، وتحدث عن العلم في جو التناسق مع القرآن . يقول سهل بمناسبة قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾^(١) .

يعنى أقررنا مخافة السيى والقتل ، لأن الإيمان « اقرار باللسان صدقاً ، وإيقان فى القلب عقداً ، وتحقيقها بالحوارج إحلاصاً ، وليس فى الإيمان أنساب ، وإنما الأنساب فى الإسلام ، والمسلم محبوب إلى المخلوق ، والمؤمن غنى عن المخلوق » .

ويتحدث سهل عن مثل المؤمن فى الدنيا فيقول :
« ما يسغى للمؤمن من أن يكون فى الدنيا إلا كمثل رجل ركب خشبة فى البحر ، وهو يقول :

يا رب ، يا رب ، لعل أن ينجيه منها ، وما من عبد مؤمن زهد فى الدنيا إلا وكل الله به ملكاً حكيماً يفرس فى قلبه أنواع الحكم كما يعرض أهل الدنيا فى بسائيتهم من طرف الأشجار » .

ولقد سئل سهل عن القاطع للمؤمن عن الله فقال :
« العبد لله والله عبده ، وليس شىء أقرب إليه من قلب المؤمن ، وإذا حصر العير فيه فهو الحجاب ، ومن نظر إلى الله بقلبه بعد عن

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٤ .

كل شيء دونه ، ومن طلب مرضاته أَرْضاه بحلمه ، ومن أسلم إلى الله تعالى قلبه سمعت جوارحه فاستقامت ، وإنما شهدت قلوبهم على قدر ما حفظوا من الجوارح ، ثم قال :

الزموا قلوبكم بحر مخلوقون وخالقنا معا ، ولا تعملوا من أعمالكم فإن الله شاهدكم حيثما كنتم ، وأنزلوا به حاجاتكم ، وموتوا على بانه ، قولوا :

نحن جهال ، وعالمنا معا ، ونحن ضعفاء ومقوينا معا ، ونحن عاجزون وقادرينا معنا ، فإن من لزمها كان الهواء والفضاء والأرض والسماء عنده سواء .

ولقد تحدث سهل كثيرًا عن أخلاق المؤمنين ، ومن ذلك ما يلي :
قوله تعالى : ﴿ لا تحذ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ﴾^(١) قال :

كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع ويجابهه ، ولا يؤاكلة ، ولا يشربه ، ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السن ، ومن تجب إلى مبتدع يطلب عزه في الدنيا وعرضًا منها أذله الله بذلك العر ، وأفقره الله بذلك الغنى ، ومن ضحكك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

(١) المجادلة : ٢٢ .

ويقول : « ليس من أخلاق المؤمن التذلل عند الفاقة ، وقبيح بانفقراء
يلبسون اخلقان ، وهموم الأوراق في قلوبهم ، وإنما أصل هذه الأمور
ثلاث :

السكون إلى الله جل وعز ، والهرب من الحلق ، وقلة الأذى .

ولقد كان عامر بن قيس يقول إذا أصبح :

اللهم إن الناس قد اتشروا لحوائجهم ، وإن حاجتي أن تغفر لي .
وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات
لم تعلموهم أن تطوؤوهم ﴾^(١) قال : المؤمن على الحقيقة من لا يغفل
عن نفسه وقلبه يفتش أحواله ، ويراقب أوقاته فيرى زيادته من نقصائه
فيشكر عند رؤية الزيادة ، ويتفرع ويدعو عند النقصان

هولاء الذين بهم يدفع الله البلاء عن أهل الأرض ، ولا يكون المؤمن
منهاوناً بأدنى التقصير فإن التهاون القليل يستوجب الكثير ، قال :

إن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يدع ست خصال :

يدع حرام ، والسحت ، والشبهة ، والجهل ، والمسكر ،
والرياء ، ويتمسك بالعم وتصحيح العمل ، والنصح بالقلب ،
والصدق بالناس والصلاح مع الحلق في معاشرتهم والإخلاص لربه
في معاملته .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بية من ربه ﴾^(٢) :

(١) المنح : ٢٥

(٢) محمد : ١٤ .

المؤمن على بيان من ربه ، ومن كان على بيته من ربه نزم الاقتداء
بالسب « وقال بمناسة قوله تعالى . ﴿ ومن الناس من يعبد الله على
حرف ﴾ ^(١) .

المؤمن وجه بلا قما ، كزار غير فرار ، نراه يجاهد في دين الله
وطاعته من إقامة توحيده ، واقتدائه ببيته ، وإدانة التصرع واللحوء
إلى الله رجاء الاتصال به من موضع لاقتداء ، كما روى ريد بن أسلم
عن النبي ﷺ ، قال :

ما من أمتي إلا يدخل الجنة إلا من أبي ، قما يا رسول الله ومن
الذي يأبى ذلك ؟

قال : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى أن يدخل
الجنة » .

وحقيقة التوحيد : هو النظر للحق لاغير ، والإقبال عليه ،
والاعتماد ، ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عما سواه ، وبإظهار الافتقار
واللحاح إليه .

ولقد سئل عن ذات الله سبحانه ، فقال :

ذات موصوفة بالعلم .

غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا .

وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول .

(١) الحج : ١١

وتراه العيون في العقبى طاهرًا في ملكه وقدرته .

وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالتقوى تعرفه ، والأبصار لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك بهاية .

وقال : « ليس له وراء ، وليس وراء الله وراء ، هو وراء كل شيء جل الله عز شأنه » .

ولقد سأله رجل عن عدم الله تعالى في عباده : هل هو شيء بداله من بعد ما خلقهم أو كان قبل أن يخلقوا ؟

فقال : « بل هو قرآن مجيد » أى كتاب محكم فى لوح محفوظ قبل أن يخلقوا ، وإن الله عز وجل فرع من علم عباده وما يعملون قبل أن يخلقهم ، ولم يجبرهم على المعصية ، ولا أكرههم على الطاعة ، ولا أهدمهم من تدبيره ، بل به على ما توعد به من كذب بقدره فقال : ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾^(١) .

على وجه التهديد ، إذ لا حول لهم ولا قوة إلا بما سبق علمه فيهم أنه سيكون منه بهم ولهم ، قال الله تعالى :

﴿وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ له﴾^(٢) .

« فالخير من الله تعالى أمر وإليه الولاية فيه ، والشر من الله نهى وإليه العصمة فيه » .

(١) الكهف : ٢٩

(٢) الرعد : ١١

ويحمل سهل على كل من يسير في تيار المعتزلة في موضوع أعمال العباد ، ومن ذلك ما يقوله عن المؤمنين :

فأمرهم الله عز وجل أن يؤمنوا بالغيب ، وأن يتبرأوا عن الحول والقوة فيما أمروا به ونهوا عنه ، اعتقاداً ، وهولاً ، وفعلًا ، ويقولو :

لا حول لنا عن معصيتك إلا بعصمتك ، ولا قوة لنا على طاعتك إلا بمعونتك ، إشفاقاً منه عليهم ، وبصرًا لهم من أن يدعوا الحول والقوة والاستطاعة كما ادعاهما من سبقت له الشقاوة ، فلما عابوا العذاب تبرأوا من ذلك فلم يفعهم تبرؤهم حين عابوا العذاب ، وقد أحبر الله عمن هذا وضعهم في قوله :

﴿فم يك ينفعهم إيمانهم - أي دعواهم - لما رأوا بأساً﴾

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأساً إلا أن قالوا : إنا كنا طالمين﴾^(١)

وكما ادعى الحول والقوة والاستطاعة فرعون وقال : متى شئت أنى أوامر أوامر ، فلما آمن م بقل منه ، قال الله تعالى
﴿الآن وقد عصيت﴾^(٢) .

أما عن مشككة حق القرآن فإن سهلاً يحالف المعتزلة ويقول بمساسة قوله تعالى :

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾^(٣) قال :

(١) الأعراف : ٥ .

(٢) يونس : ٩١ .

(٣) الكهف : ١٠٩ .

أى يعلم ربه وعجائبه ، ثم قال :

« إن من علمه كتابه ، ولو أن عبداً أعطى لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية علم الله فيه ، لأنه كلامه القديم ، وكلامه صفته ولا نهاية لصفاته كما لا نهاية له ، وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كرمه » .

أما عن فكرته فى أفعال العباد فإنه يقول :

معنى : « رب العالمين » سيد الخلق المربى لهم ، والقائم بأمرهم ، المصلح المدير لهم قبل كونهم وكون فعلهم ، المتصوف بهم السابق علمه فيهم كيف شاء لما شاء ، وأراد وحكم وقدر من أمر ونهى ، لا رب لهم غيره » .

أما عن موقف المؤمن من القرآن الكريم ، فإن سهلاً يتحدث عن ذلك فى أكثر من مكان .

قيل له : ما معنى قوله القرآن حبل الله بين الله وبين عباده ؟

قال أى لا طريق هم إليه إلا به ، وبفهم ما حاصبهم فيه للمراد منهم به ، والعمل بالعلم لله محلصين فيه ، والافتداء بسنة محمد ﷺ المبعوث إليهم ، كما قال :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (١)

وقال سهل : إن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه ﷺ ، وجعل فيه معدناً لتوحيده والقرآن ، فقال :

(١) النساء : ٨٠ .

﴿نزل به الروح الأمين ، على قلبك﴾^(١) .

وكلفه تليغته عنه ليعلم المؤمنون به ما أنزل إليهم ، فمن آمن به ولم يعمل بعلم ما فيه لم يكمل أجره .

وقال سهل :

العجب كل العجب لمن قرأ القرآن ولم يعمل به ، ولم يجنب ما نهاه الله عنه ، أما استحياء من الله ومحاربه ومحالفة أمره ونهيه بعد علمه به ؟ فأى شيء أعظم من هذه المحاربة ؟ ألم يسمع وعده ووعدته ؟ ألم يسمع ما وعده الله به من السكار فيرحم نفسه ويتوب ؟ ألم يسمع قوله : ﴿إن رحمة الله قريب من المحسين﴾^(٢) فيجهد في الإحسان ؟ ألم يسمع قوله : « ورحمتي سبغت عداي فيرعب في رحمتي ؟ » . وبعد : فإن علامة المؤمن الكامل - كما يقول سهل - ألا يحاف أحداً دون الله .

(١) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) الأعراف : ٥٦ .

البَابُ الثَّانِي

الطَّرِيقُ

- الفصل الأول . الطريق في جوه المادى
الفصل الثانى : الطريق في جو القدوة والتأسى .
الفصل الثالث : الطريق في جوه الأخلاقى
الفصل الرابع : الطريق في جو التوبة .
الفصل الخامس : الطريق في جو الإخلاص .
الفصل السادس : الطريق في جو المعراج
الفصل السابع . الطريق من زوابة الولاية
والكرامات .
الفصل الثامن : متاثرات عن الطريق في الحكم
والمراعى والنصائح والتوجيهات

الفصل الأول الطريق في جوه المادى

بلغ سهل المضوج . والنضوج الروحى بتوفيق الله بعد جهاد ومجاهدة ، بعد ذكر وعبادة ، بعد صوم وسياحة : وحيماً أدن الله له فى الدعوة إليه أخذ يدعو إليه على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى .

والطريق الذى رسمه إنما هو نتيجة خبرة عالمة ، ونتيجة وصل إليها عالم مجرب لقد سار سهل مع التجربة الروحية فى مسالكها ، ومدارجها ، ومعارجها ، لقد عاشها ؛ لقد كان يحياها الذكى المتبصر العالم ، لقد عاش التجربة الروحية طويلاً وعاشها عرصاً ؛ لقد فنى فيها فكان هو هى ..

ورسمها .

كيف رسمها ؟ ما هى ممانتها ؟ ما الطريق ؟

والصريق له أجواء مترابطة ، متلازمة أو متلاحمة ، وبيداً ، بتيسير الله بالكتابة عن الطريق فى جوه المادى حسماً حظه سهل .

وعنى بالطريق فى جوه المادى الحياة من ناحية المأكل والمشرب وبعض الناس لا يبالى بطعامه وشرابه من ناحية الخل والحرمة ، وبعضهم لا يهتم بالاهتمام الدقيق لذلك ، ولكن الصوفية يرون أن أكل

الحلال إنما هو الخسرة الأولى المادية هي الطريق إلى الله ومثالها في هذا الجانب مثل التوبة في الجانب الروحي ، يقول سهل . « من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم »^(١) .
ومن عصت جوارحه ، ومن غلبته جوارحه فليس له في طريق الله نصيب .

ولا مخلص من الابتعاد عن أكل الحرام حتى لا تنمرد الجوارح ، وحتى لا يكون رتكاب للإثم ، وأكل الحرام نفسه إثم باعث على الإثم .

وقد يقول قائل إن هذه المسألة أمرها هين ، فالناس عادة يأكلون الحلال من مرتباتهم ، أو من مزارعهم ، أو من مههم ..
بيد أن الصوفية لا ينصرفون إلى الأمور هذه الطرفة السهلة ، إنهم يتخرجون ويتساءلون : أدخل هذا المال ربا ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من الزكاة ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من ناحية الأمانة في العمل ، ومن ناحيته إتقانه : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ؟ وإن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، فهل كان العمل محرراً بالنسبة للأجر ؟
هل دخل هذا المال مال من الأيتام ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النمط ، هي مظهر من مظاهر الحرص على أن يعيش في الحر الحلال الصافي ، وذلك أن .

(١) الكواكب السرية .

من أحب أن يكشف آيات الصديقين ، فلا يأكل إلا حلالاً ،
ولا يعمل إلا في سعة أو لضرورة^(١) على حد تعبير سهل .

رأيه . كما يقول : « من لم يكن مصعمه من الحلال ، لم يكشف
عن قلبه حجاب ، وتسارعت إليه العقبات . ولا تنفعه صلاته ،
ولا صومه ، ولا صدقته »^(٢) .

وقد بين سهل النتيجة العامة ، لأكل الحرام بقوله :

« يأتي على الناس زمان يذهب الحلال من أيدي أغنيائهم وتكون
أموالهم من غير حلها ، فيسلط الله بعضهم على بعض يعني بالأدى
والمرافعات عند الحكام .

تذهب لذة عيشهم ، ويرم قلوبهم خوف فقر الدنيا ، وخوف
شماتة الأعداء .

ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم ، وتكون سادتهم في بلاء
وشقاء وعناء وخوف من الظالمين .

ولا يستلذ بعش يومئذ إلا مافق لا يبالي من أين أخذ . ولا فيما
أنفق ، ولا كيف أهلك نفسه ؟ »

(٢)

أكل الحلال ... ومع ذلك فإن هذا الحلال نفسه ، لا يؤدي إلى
خير إذا أسرف الإنسان فيه :

(١) الكواكب السرية .

(٢) الطبقات الكبرى للشمس

« ذلك أن البطلة أصل الغفلة » كما يقول سهل :

والسبب - كما يرى - حرام على صفة خلق الله ، لا ينالون فيها إلا بقدر الضرورة^(١) .

« ومادامت النفس تشتهي المعصية ، فلا يصل لقلب شيء من نور الطاعة ، فأدبوا أنفسكم بالجوع والعطش »^(٢) .

وعامة الناس معنيون عناية شديدة بالأكل والشرب ، وبعضهم لا هم له إلا ذلك ، ويبين سهل أنواع عيش الناس ومنازلهم من ذلك فيقول :

« العيش على أربعة أوجه :

عيش الملائكة في لطاعة ، وعيش الأنبياء ، في العلم وانتظار الوحي وعيش الصديقين ، في الاقتداء ، وعيش سائر الناس علماً كان أو جاهلاً زاهداً كان أو عابداً ، في الأكل والشرب » .

ويقول سهل الضروري للأنبياء والقوام الصديقين .

والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

ويعنى بالمعلوم . الأكل الذي يسبب ضرورة ، ولا قواماً ، ولا قوتاً إنما هو رائد على ذلك ، على أن الشبع معه الحقيقي لا يؤدي إليه الأكل فحسب .

فمن ظن أنه يشبع من الحبز : جاع » .

(١) الكواكب الدرية : للمناوي .

(٢) الكواكب الدرية .

والإنسان يمكنه أن يعيش أياماً دون أن يشعر بلهيب الجوع ، وقد
سئل سهل عن لا يأكل أياماً . أين يذهب لطب جوعه ؟
فقال : يطفئه نور القلب .

على أنه من الصريف أن يسأل رجل سهلاً ، فيقول له :
يا أستاذ ، أى شيء القوت ؟
قال : الذكر الدائم .

قال الرجل . لم سألتك عن هذا ، إنما سألتك عن قوام النفس .
فقال : يا رجل لا تقوم الأشياء إلا بالله .

فقال الرجل لم أعن هذا ، سألتك عما لا بد منه
فقال : يا فتى لا بد من الله .

كان سهل ، يوجه إلى الله حتى حينما يسأل عن الناحية المادية .
وبعد . فهذه بعض أقوال سهل فيما يتعلق بذلك ، إنه يقول
لا يرى في القيامه عمل بر أفضل من ترك فصول الطعام ، والاقتداء
بالمصطفى ﷺ في أكله ويقول :

لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا
ويقول :

لا أعلم شيئاً أصر على طلاب الآخرة من الأكل .
ويقول :

جعل العلم والحكمة من الجوع ، وجعل المعصية والجهل في الشبع .

ويقول :

ما عند الله بشيء أفضل من محالفة أهوى في ترك الحلال ، وقد قال في الحديث : « ثلث للطعام » فما زاد فإنما يأكل من حسناته

ويقول :

إنما صار الأبدال أبدالاً بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة

ويقول :

رأس كل برير لسماء والأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع .

ويقول :

إقبال الله على العبد بالجوع والسقم ولبلاء إلا من شاء كله .

ويقول :

لو كانت الدنيا دماً غيظاً كان قوت المؤمنين منها حلالاً لأنه أكله عند الضرورة بقدر القوام فقط :

ويقول :

إنما حجب الحلق عن مشاهدة الملكوت ، وعن الوصول . بسوء المطعم وأدى الحق .

(٣)

الأكل الحلال وعدم الإسراف فيه .

ولابد من أمر ثالث حتى ينتهي من « الصريق في حوه المدي » .

إن الناس يتكاليون على الحياة ويحرون وراء العيش في غير إجمال ولا رفق في الطلب وإنما في بهم وفي تهافت .

ويحاول سهل ، أن يجعل الناس يجمّلون في الطلب ، ويترفقون في الحرى وراء الدنيا ، ويجعلون الله حساباً في تقديرهم وتصريفهم للأمور ، فيقول لهم :

« إن المؤمن كرم على الله من أن يجعل رزقه من حيث يحتسب ، يطمع المؤمن في موضع فيسمع من ذلك ريثاً من حيث لا يحتسب »^(١) .

« إن الله تعالى خلق الخلق ولم يجهشهم عنه ، وإنما جاءهم بالحجاب من تدبيرهم واختيارهم مع الله تعالى ، وذلك هو الذي كدر على الخلق عيشهم » .

ويتهى سهل من مشكلة لاكتساب نقوله . « من طعن على الاكتساب ، فقد طعن على السنة » .

وذلك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يحث دائماً على العمل والكسب ، فيقول ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حله ثم يأتي الجبل فيأتي بحرمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » رواه البخاري .

وعن المقداد بن معد يكرب ، رضي الله عنه ، عن النبي ، ﷺ ، قال :

(١) حلية الأولياء .

« ما أكل أحد طعاما قط حير من أن يأكل من عمل يديه ، وإن
بى الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى
وقال عليه السلام :

« ما من مسلم يخرس غرساً أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو
إنسان إلا كان له به صدقة » رواه البخارى ومسلم والترمذى .
ويتهى سهل أيضا بأن :

« من طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان » وذلك أن الله ،
سبحانه وتعالى ، يقول :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ،
ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل
شيء قدراً﴾^(١) .

ويقول سبحانه . ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾^(٢) .

ويقول الرسول عليه السلام :

« لو توكلتم على الله حق التوكل ، لررقكم كما يرق الطير تغدو
حماصاً ونروح بطائناً » من طعن على أسسه ، ومن طعن على التوكل ،
فقد طعن على الإيمان .

ولابد إد من نسيق يسحهم فيه الاكتساب مع التوكل .

(١) سورة الطلاق : الآيتان ٢ ، ٣

(٢) التوبة : ٥١

ولا بد من الاكتساب ولا بد من تفويض الأمر في التتيحة لله ، سبحانه وتعالى ولا بد من العمل المتقن ، ولا بد من ذلك من أن يكل الإنسان أمر اجتناء الثمرة إلى الله ، سبحانه وتعالى .

ولا بد من أن يعقل الإنسان دفته ، ثم يتوكل على الله في أمر حفظها ، يقول ﷺ : « اعقلها وتوكل » .

فإذا ما تأتى النسيق بين الاكتساب والتوكل ، هذى المؤمن واستراحت نفسه وأجمل في لطلب ورصى بما قسمه الله له ، وعمره برع من السكية وبسرت عليه أمور الحياة .

الاكتساب والتوكل : ذلك قانون الإيمان ، وقانون الصوفية وما أكل أحد طعاماً قط حيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده وإبراهيم بن أدهم - إمام من أئمة الصوفية ، ومارة من منارات التقوى - كان متوكلاً على الله ، وكان يعمل فيأكل من عمل يده .

وهما تنهافت كل الاعتراضات - اعتراضات أهل الدنيا التي تتصل بالكسب نفيًا بوجوده في جو الصوفية ، أو التي تتصل بالتوكل تحريمًا لمعه ردها به إلى غير سبيله ، ومن الحق أن

« من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان .

« لقد اهتم سهل اهتماماً كبيراً بأكل الحلال ، ودلت لما لهذا الجانب من مكانة كبرى في الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، وفي كسب الحلال .

وليبيان هذه المرة بذكر الحديثين التاليين عن رسول الله ﷺ

روى ابن مردويه - بسنده - عن ابن عباس قال .

« تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾^(١) فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال :

يا سعد ، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف النعمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا ، وأما عد ست لحمه من السحت والريا فالبار أولى به »

وروى أحمد ومسلم بمسندهما عن أبي هريرة قل قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيب ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

وقال ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٣) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء . يارب يارب . ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ..

ومن صريف ما يروى في ذلك عن سهل - وهي قصة لها معراها العميق - أنه قال مرة : أن حججه الله على الخلق ، وأن حجة على أولياء

(١) البقرة . الآية . ١٦٨ .

(٢) المؤمنون الآية : ٥١ .

(٣) البقرة . الآية . ١٧٢ .

رمانى « ، فبلغ ذلك أبا زكريا لساحى وأب عبد الله الزبيرى ، فدهبا إليه ، فقال له أبو عبد الله الزبيرى - وكان جسورا لأنه صرير - بلعنا عنك أنك تقول : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة الله على أولياء رمانى « ، فمادا صبرت ؟ هل أنت سبى أو صديق ؟

فقال سهل : لم أذهب حيث طنت ، ولست أنا سبياً ، إنما قلت هذا لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى .. فقال له : وأنت صححت الحلال قل : نعم ، لا آكل دائماً إلا حلالاً فقال له الزبيرى وكيف ذلك ؟

فقال له سهل : قسمت عقتى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء ، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتلف معه نفسى أكلت بقدر اللغة خوفا أن أكون أعت على نفسى ، ولترد على الستة الأخرى ، فبهذا صح الحلال ..

فقال الزبيرى : بح لا بقدر على المداومة على هذا ، ولا نعرف أن نقسم عقوبنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء ، واعترف بفضل سهل رضى الله عنه .

الفضل الثاني الطريق في حو القدوة والتأسي

ونريد الآن - بتوفيق الله - أن نتدرج في الطريق : سائرين مع أجوائه المترقية ، ومع مدارله المتسامية ، حتى نصل مع « سهل » إلى تصوير العاية التي يهدف إليها الداهيون إلى الله ، على الأسلوب الذي سلكه سهل ورسمه ، وعلى الطريقة التي سار عليها ونقرب إلى الله بها .

والسؤال الذي يدور على الألسنة دائما هو :

ما مدى صلة الطريق بالسنة النبوية ، بسلوك رسول الله ﷺ ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾^(١)

فما هو موقف سهل من هذه الأسوة ؟ وما هو مدى التزامه ؟

إن اتباع الهوى هو سبيل المحرفين .

يقول سهل :

« كل عبد يفعل طاعة أو ينحلي عن معصية بغير اقتداء فهو عيش «ليس» أي حطها وهواها ، إنه وقد نحلي عن الاتباع إيجابا أو سلبا ليس إلا هوى .

(١) الأحزاب : ٢١ .

يقول الله تعالى .

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِهْوَ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ه أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١) .

أما سبيل المؤمنين فإنه الاتباع .

يقول سهل :

« أَيْمًا عَبْدٌ قَامَ بِشَيْءٍ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، فَعَمِلَ بِهِ ، وَتَمَسَّكَ بِهِ . فَاحْتَسَبَ مَا نَهَى اللَّهُ ، تَعَالَى عَنْهُ عَدُوٌّ فَسَادِ الْأُمُورِ ، وَعِنْدَ تَشْوِيشِ الرِّمَانِ ، وَاحْتِلَافِ النَّاسِ فِي الرَّأْيِ ، وَالتَّفَرُّقِ ... إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ . هَادِيًا مَهْدِيًا ، قَدْ أَقَامَ الدِّينَ فِي زَمَانِهِ ، وَأَقَامَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وهو العريب في زمانه ، الذي قال رسول الله ﷺ عنه :

« بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيًّا وَسِعُودَ كَمَا بَدَأَ »

وما من عبد دخل في شيء من السنة ، وكانت نيته متقدمة في دحوه الله ، إلا خرج الجهل من سره ، شاء أو أبى ، بتقديمه النية .

ولا يعرف الجهل إلا عالم بفيه زاهد عابد حكيم « (إن لاتباع علم ، وعدم الاتباع جهل ، إنه جهل مهما بلغ صاحبه من الثقافة ، وذلك أن كل رأى في عالم الأخلاق لا تأسى فيه إنما هو رأى ظلى ،

(١) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

وهو رأى تسهل معارضة برأى آخر ، ويسهل بقصه برأى ثالث ،
إبه إذن جهل حيث لا يقين فيه ، قال الله تعالى (.

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم
لا يحدوا هي أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (١) .

وما من شك في أن الفوضى الأخلاقية التي تعيش فيها ، والاعتراف
في اشباب وفي الشيوخ الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة :
إما مرجعه إلى المحاولات الآثمة التي يدعو إليها الملاحدة من فصل
الأخلاق عن الدين ، وإذا ما فصلت الأخلاق عن الدين ، فإنها تتعرض
لآفات كثيرة منها :

١ - أنها تفقد قدسيتها حيث يصبح منبعها بشرياً لا إلهياً ، وحيث
تصبح بذلك رأياً لا عقيدة .

٢ - تصبح جدلاً . يكرها جملة من ينكرها ينكرها
السوفسطائيون ، ويكرها ينشئه ، ويكرها الوجوديون ، ولا يرى
هؤلاء ، ولا أولئك للفصيلة معنى ثابثاً ولا لتحرير مبادئ حقيقية .

٣ - تصبح نسبية . تتقلب مع أهواء الفرد ، ومع روايات المحرفين ،
ومع شهوات المبطلين .

ويتضح عن ذلك كله : اضطراب المجتمع ، وفساد الجماعة ، لا يأمن
الناس على دمائهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم .

(١) النساء آية ٥٠ - ٦٥

ومن أجل ذلك كان الناسي علمًا ، وكان حكمه أيضًا : حكمة بالنسبة للفرد : يأمر ويهدئ ، وحكمة بالنسبة للمجتمع : يستقر ويرقى .

وأما عدم الناسي فإنه جهل ، وإنه لفسفه أيضًا :

﴿واتل عليهم نأ الذي آتياه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه ، فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص عليهم يتفكرون﴾^(١) .

﴿ولا وربك لا يؤمنون حتى يحكموا فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾^(٢) .

« واتباع السنن الديني : ذلك هو طريق الهداية ، قال الله تعالى : ﴿واتبعوه لعلكم تهتدوا﴾^(٣) وكلمة سهل عن أصول الطريق مشهورة معروفة ، إنه يقول : أصولنا سبعة أشياء :

التمسك بكتاب الله تعالى ، ولاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق ، ويتحدث سهل في تفسيره عن الاقتداء برسول الله ﷺ فيقول في قوله تعالى . ﴿وما أنكم الرسول فحذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(٤) .

(١) الأعراف آية : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) النساء آية : ٦٥ .

(٣) الأعراف : ١٥٨ .

(٤) الحشر : ٧ .

قال : « أصول مذهبنا ثلاث » :

أكل الحلال ، والافتداء بالرسول ﷺ في الأحلاق والأفعال ،
وإخلاص الية في جميع الأعمال ، وقال : أرموا أنفسكم ثلاثة أشياء ،
فإن خير الدنيا والآخرة فيها : صحتها بالأمر والهي بالسنة ، وإقامة
التوحيد فيها وهو اليعرب ، وعلماً فيه اتصال الروح .

وصاحب هذه الثلاثة أعلم بما هي بطن الأرض مما على ظهرها ،
ونظره في الآخرة أكثر من نظره في الدنيا ، وهو في السموات أشهر
بين الملائكة منه في الأرض بين أهله وقربانه ، فقيل : ما العلم الذي
فيه إيصال الروح ؟

قال : « علم قيام الله عليه والرضا » .

﴿فمن أتبع هدای فلا یصل ولا یشقی﴾^(١) .

قال : « هو الافتداء وملازمة الكتاب والسنة ، فلا يصل عن طريق
الهدى ، ولا يشقى في الآخرة والأولى » انتهى

وقال : « من لم يكن اقتداؤه في جميع أموره بالنبي ﷺ فهو صال »
﴿وان الله یدخل الدین آموا وعملوا الصالحات جنات﴾^(٢) .

قال : « هم المذنب صدقوا الله في السر والعلانية ، واتبعوا سنة نبيه
ﷺ ، ولم يتدعوا بحال »

﴿هو الذي بعث في الأمیر رسولا منهم﴾^(٣) .

(١) طه ١٢٣ .

(٢) الحج : ١٤ .

(٣) الجمعة ٢ .

قال : « الأميون هم الدين صدقوا محمداً ﷺ . نسبوا إليه لاتباعهم إياه واقتدائهم به ، ومن لم يقتد به فليس من أمته » .

يقول سهل :

« لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا راد إلا لتقوى ، ولا عمل إلا الصبر » .

ومن أجمل ما كتبه سهل في الاتباع قوله بمنسوبة قول الله تعالى ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(١) قال : حسن العمل الاستقامة عليه بالسنة ، وإنما مثل السنة في الدنيا مثل الجنة في الآخرة ، ومن دخل الجنة سلم ، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم من الآفات . وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لو أن رجلاً ارتكب جميع الكبائر ثم لم يكن فيه شيء من هذه الأهواء والبدع لرجوت له ، ثم قال : من مات على السنة فليشر ثلاث مرات .

وقال سهل : لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يذفن نفسه في الثرى ، قبل له . كيف يذفن نفسه ؟ قال : يمينها على السنة ، ويذفن في اتباع السنة ، لأن لكل شيء من مقامات عابدين مثل الخوف والرجاء والحب والشرق والرهق والرصى والتوكل غاية إلا السنة فإنه ليست لها غاية ونهاية ...

فسئل عن معنى قوله . بيت للسنة عاية . فقال . لا يكون لأحد مثل خوف النبي ﷺ أو حبه أو شوقه أو زهده أو رضاه أو توكله أو أخلاقه ، وقد قال الله تعالى :

(١) الكهف ٣٠ .

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خَلْقَ عَظِيمٍ﴾^(١) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿وَيَزِدْ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(٢) .
أى يزيد الله الذين اهتدوا بصيره في إيمانهم بالله وهي اقتدائهم بمحمد
ﷺ وهو زيادة الهدى والنور المبين .

ويقول في تفسير قوله سبحانه :

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم﴾^(٣) .

أى فلما عايطوا بالإقامة على المحالفة في الأوامر وإظهار البدع في
الدين ونرك السنن ، اتباعاً لوجود لأهواء ، برعنا نور المعرفة من قلوبهم
وسراح التوحيد من أسرارهم ، ووكلناهم إلى أنفسهم ، وما احتاروه
فصلوا وأضلوا ، ثم قال .

« الاتباع لاتباع ، الاقتداء ، فإنه سبيل السبف ، ما حصل من اتباع ،
وما نجا من ابتدع » .

ويقول في تفسيره لقول الله تعالى : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٤) .

« يعنى بطاعة الله واتباع السنن » .

ومما لا شك فيه أن سهلاً كان متمثلاً - فى ذلك - لما روى عن
رسول الله ﷺ :

-
- (١) العلم الآية ٤
(٢) مريم الآية ٧٦
(٣) الرحرف الآية ٥٥
(٤) التحريم الآية ٦

فمن أبي سعيد الحدرى قال . قال رسول الله ﷺ
 « من أكل طيبا ، وعمل في سنة ، وأمس الناس بوائقه دخل الجنة » .
 قالوا : يا رسول الله ، إن هذا في أمثك اليوم كثير ..
 قال : « وسيكون في قوم يعدي »^(١) .
 وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع
 فقال :

« إن الشيطان قد يش أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع
 فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، .. إني قد تركت
 فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تصلوا أبداً : كتاب الله وسنة بيده »^(٢)
 وعن مجاهد قال :

كنا مع ابن عمر - رحمه الله - في سمر ، فمر بمكان فجاد عنه ،
 فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا
 ففعلت^(٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة
 فيقبل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك^(٤) .
 وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ . « من
 أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »^(٥)

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وغيره . وحاكم والبيهقي في صحيح الإسناد .
 (٢) رواه إمامكم وقال صحيح الإسناد وبه أصل في الصحيح .
 (٣) رواه أحمد والبيهقي بإسناد جيد .
 (٤) رواه البيهقي بإسناد لا بأس به .
 (٥) رواه البخاري ومسلم وغيره

وعن جابر رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيانه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، يقول . صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين - ويقرن بين إصبعيه - السبابة والوسطى - ويقول :

« أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .. ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فليأهله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلى »^(١) .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب : الرائد في كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمسلط على أمتي بالحبروت لينزل من أمر الله ويعر من أدل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عزتي ما حرم الله ، والتارك للسنة »^(٢) .

وعن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول . « انى أخاف على أمتي من ثلاث . من رنة عالم ، ومن هوى متبع ، ومن حكم جائر »^(٣) .

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ولا أعرف له علّة .

(٣) رواه البرار والطبرانى والترمذى

الفصل الثالث الطريق في جوه الأخلاق

يقول رسول الله ، ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقد أوحى الله تعالى ، مد أن كانت الأديان - الأخلاق الكريمة تتوالى على لسان رسله الأطهار ، وكان ممام هذه الأخلاق وكمالها بما هو : رسولنا وإمامنا ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد وصفه الله تعالى ، بقوله :

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾^(١) .

ووصفه ، سبحانه ، بالرافة والرحمة :

وحدد ، سبحانه ، طابع الرسالة الإسلامية بأنه الرحمة . فقال سبحانه

﴿وما أرسناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٢) .

وقال ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وعلى أساس من عاياه الإسلام بالأخلاق الكريمة قامت دعوه تصوفية إلى الأخلاق الفاضلة .

(١) القم الآية ٤ .

(٢) الأناء الآية ١٠٧ .

ولقد حدد كثير منهم التصوف بأنه الأخلاق وفان سهل يحدد
التصوف :

« التصوف ليس رسماً ، ولا علماً ، ولكنه خلق .

لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة .

ولو كان علماً لحصل بالتعليم .

ولكنه تخلق بأخلاق الله .

ولم تستطع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » . ولقد
ذكر الناس - عند سهل - الكرامات وأخذوا في الحديث عنها مكبرين
له مشيدين بأمرها فقال سهل :

« وما الآيات ؟

وما الكرامات ؟ شيء ينقصى لوقته .

ولكن أكثر الكرامات ، أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك
بخلق محمود » ، ويحمل سهل على المعاصي حمة مستقيمة ، ويقدم
أمر الانتهاء عن المعاصي على عمل الطاعات .

يقول سهل :

« ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما
نهى الله عنه صار حبيب الله ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿مَنْ يَحْتَسِبْ كَثُرَ مَا يُهْوَى عَنْهُ يَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَدَحْكَكُمْ
مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(١) .

(١) الباء آية ٢١

ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب .

أما أعمال البر فإنه يعملها البر والفاجر .

وقال مرة أخرى : أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصي إلا صديق ، والمعصية الكبرى ، المعصية التي يراها الصوفية أقبح المعاصي ، المعصية التي تقف عقبة أمام كل تقدم في طريق الله هي ما عبر عنها سهل بقوله : « ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب »^(١) ولقد قيل له مرة :

ما أعرب الأشياء ؟

فقال : « قلب عرف الله ثم عصاه »^(٢) .

وإذا أقام العبد على معصية فإن جميع حسناته تكون مبروجة بالهوى ، لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص عن هواه حتى يحرح من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله تعالى . ولقد صور الله تعالى - كما يذكر سهل - الطبائع المسحرفة ، ورسم طريق العلاج ؛ فطبع اليهائم بصوره الله بقوله : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾^(٣) .

﴿ والدين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾^(٤) .

(١) الكواكب الدرية .

(٢) وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين

لهم الهدى ، الشيطان سئل لهم وأبى لهم ﴾ ٢٥ من سورة محمد .

(٣) البقرة ٣٠

(٤) محمد ١٢

وطبيعة أهل الدنيا . اللهو ، واللعب ، والريّة ، والفاجر ،
والتكاثر : فكل حياتهم :

« لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم . وتكاثر في الأموال والأولاد
واستعبد الله هؤلاء وأولئك ليخرجهم من طباعهم إلى طبائع تسامى
- بالتسبيح والتقديس والتحميد والتكبير والشكر ، حتى يسلّموا من
طبع الشياطين : اللهو واللعب ، ويقتربوا من صباغ الملائكة ، يقول
تعالى : ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه ،
وله يسجدون﴾^(١) .

ويقول سبحانه :

﴿وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته
ولا يستخسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾^(٢)

ومن الناس من تكون طبيعته طبيعة السحرة ، طبيعته المكر والخديعة ،
ويقول الله عن هذه الطبيعة :

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾^(٣) .

ويقول سبحانه :

﴿يحادعون الله وهو خادعهم﴾^(٤) .

(١) الأعراف : ٢٠٦ .
(٢) الأنبياء آية ١٩ ، ٢٠ .
(٣) الأنفال آية ٣٠ .
(٤) النساء آية ١٤٢ .

وبصور الله العلاج بالنسبة هؤلاء . لقد استعبدتهم الله بالافتداء بالنبي ﷺ ، بالصبيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والاستعانة بالله ، والصبر على ذلك إلى المحات^(١) .

ومن الناس من طبيعته طبيعة الأبالسة ، وطبيعة الأبالسة : الإباء والاستكبار ، يقول الله سبحانه عن إبليس

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾^(٢) وعلاج الطبيعة الإبليسية : الدعاء ، والتصرع والاتجاء إلى الله ، لقد استعبدهم بذلك حتى يسموا من طبع الأبالسة :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾^(٣) ؟

وأحب لهم لا اعتصام بحبل الله ﴿وعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(٤) .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾^(٥) .

على أن شيعين يذهبان خوف الله من قلب العبد : الدعوى ، والمعصية وصاحب المعصية إذا خوفته واحتجبت عليه بالإيمان : يقاد ويخضع ، ويفر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ، ولا يقاد للخوف البتة .

(١) حلقه الأوبى .

(٢) البقرة الآية ٣٤ .

(٣) العنكبوت آية : ٧٧

(٤) آل عمران آية . ١٠٣ .

(٥) آل عمران آية . ١٠١

ولا يوجد قلب أخلى من الخير ، ولا أقصى ولا أبعد من خوف الله ، من قلب المدعى^(١) .

على أنه من الواجب أن تنبه إلى الجهل الديني ، فإنه من الأسباب الكبرى في المعاصي ، فإنه في حقيقة الأمر إذا نظرنا إلى هؤلاء المؤثرين للعالم المتخمين فيها ، المرتكسين في مساراتها ، فإننا نجد الجهل : يقول سهل - « أصل الدنيا الجهل » وفرعها الأكل ، والشرب ، والطيب ، والنساء ، والمال ، والتفاخر ، والتكاثر ، وثمرتها المعاصي وعقوبة المعاصي الإصرار .

وثمرة الإصرار الغفلة .

وثمرة الغفلة الاجترار على الله .

يقول الله تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٢) .

واستمر سهل يستفيض في التحذير من المعاصي : مبهاً ، ومعرفاً ، ومبيناً ، ولقد آن لنا أن نتق إلى الطاعات وبيانها على ما وضعه سهل في أمرها :

إن الانغماس في الدنيا والارتكاس في موبقاتها شر :
« والدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ، والعمل كله هباء منثور إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه . أنت منه على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا »^(٣) .

(١) حلية الأولياء .

(٢) المظنمين آية : ١٤ .

(٣) الحلية .

وينصح سهل من أراد الاتجاه إلى حياة الحير قائلاً :

« لا تفتش عن مساوىئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث في أخلاق الإسلام : ما حالك فيه حتى تسلم ، ويعظم قدره في نفسك وعينك . وتجتهد في التمسك بتلك الأخلاق »^(١) .

فتش عن أخلاق الإسلام ، واجتهد في التمسك بها .

وأول ما ينبغي في ذلك : مخالفة الهوى ، ومخالفة الهوى - حسبما يرى سهل - من أفضل ما عبد الله به .

مخالفة الهوى في سبيل الله ؛ وما كانت مخالفة النفس في يوم من الأيام هدفاً في نفسها ، إنها - في الوضع الديني السليم - ليست غاية ، وإنما هي وسيلة لتيسير سبيل الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع والتأسي برسول الله ﷺ ، إنها وسيلة تيسر الاستجابة إلى الله ورسوله . وإذا ما أراد الإنسان السير على الطريق المستقيم فينبغي أن :

يطهر العلم من الجهل بالاتباع والتأسي .

ويطهر الذكر من النسيان بعدم الغفلة .

ويطهر الطاعة من المعصية^(٢) بالانقطاع عن الشهوات المحرمة .

بل إن الخروج من الشهوات - حسبما يرى سهل - خروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

(١) الكواكب الدرية والحبية

(٢) الخلقة

وأول ما ينبغي للعبد أن ينحلق به ثلاثة أخلاق ، وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المثونة ، والرفق فى كل شىء ، واحذر أن يميل فى الهوى ، أو مع الهوى ، أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها : اكتساب العلم العالى (أى العلم بالتوحيد) ، والحلم ، والتواضع .

ثم لابد له من ثلاثة أخر وفيها : اكتساب المعرفة ، وأخلاق أهمها . السكينة ، والوقار ، والصيانة والإصناف . ولابد لإحكام التعمد من الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والمصيبة .

الفصل الرابع الطريق في جو التوبة

لقد احتل موضوع التوبة من نفس سهل مكاناً كبيراً .
وكان سهل على حق في اهتمامه بموضوع التوبة : وذلك أن أول
خطوة يخطوها الإنسان في معراجه إلى الله تعالى إنما هي التوبة الصادقة .
ولقد حث الله سبحانه وتعالى عليها بهشتي الأساليب ، وفتح سبحانه
أبوابها على مصاريعها .

لقد أمر بها سبحانه في القرآن الكريم :
﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(١) .
وحث عليها في الأحاديث بأسلوب في غاية الجمال :
« يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً
فاستغفروني أغفر لكم » .

وحث عليها رسول الله ﷺ في أساليب مؤثرة :
« إن الله يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار .
ويسطر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .
ويقول صلوات الله عليه وسلامه :

(١) النور الآية ٣١ .

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

أما من الناحية العملية الواقعية ، فإن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره كثيراً .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« والله إني لأستعصر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »^(١) .

وعن الأعرابي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني ليقان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »^(٢) .

ويقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الأعرابي - :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^(٤)

والله سبحانه علق حبه على كثرة التوبة .

التوبة ولو لم يكن ذنب ، التوبة ولو لم تكن هفوة ، التوبة باعتبارها عبادة ، التوبة باعتبارها من الأبواب التي يدخل منها الإنسان إلى حب الله له .

وإذا أمعنا النظر في موضوع التوبة نجد أنه تلازم الإنسان طيلة حياته ، وإذا كانت مقامات السالكين إلى الله يسلم بعضها إلى بعض ، ويرقى الإنسان فيها من مقام ينتهي منه إلى مقام يسير فيه إلى غايته

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) البقرة الآية ٢٢٢

يسلمه إلى مقام ثالث ؛ وهكذا ، فإن التوبة مقام أساسي يسلم إلى ما بعده ، ولكنه لا ينتهي ، وإنما يلازم الإنسان مهما ترقى في معراجهِ إلى الله سبحانه ، ومن أحل ذلك كان الواقع في حياة رسول الله ﷺ الاستمرار في التوبة ، يومياً يتوب صلوات الله وسلامه عليه توبة عبادة ، توبة تصرع ، توبة انكسار إلى الله ، طلباً لمحصانه ، توبة نواضع وحشية ، توبة يدخل بها إلى حب الله سبحانه له ، التوبة إنها شعار كل صادق في اتجاهه إلى الله .

وإذا كانت م تأخذ حظها من الاهتمام عند بعض الناس فإنها ملكت على سهل شعره ووحدانه ، وبلغ من أهميتها عنده أن أعلن أن « التوبة فرص على العبد في كل نفس » .

والواقع أنه إذا سار الإنسان في جو من الفهم الذي يسم بسعة الأفق بعيداً عن قيود الألفاظ فإنه يستطيع أن يفهم من هذه الجملة أن المقصود بها أن يستمر الإنسان « متذكراً » لله سبحانه في جميع لحظاته وتكون على هذا الوضع « التوبة ذكر » .

وما هو الذكر إذا لم يكن تضرعاً إلى الله ومراعاة لحدوده أمراً ونهيًا ؟ وما هي التوبة إذا لم تكن ذكر الله ومراعاة له في الحركات والسكنات ؟

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أولى الألباب فيذكر من صفاتهم أنهم ﴿الذين يدكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾^(١) .

(١) آل عمران الآية : ١٩١ .

أى فى كل أحوالهم ، أو .. فى كل أمانهم .

إنه إذا حسنت الية ، أمكن أخذ الأمور من جانب رحابة الصدر ،
وسعة الأفق

ولكن هذه الكلمة الجملة من سهل « التوبة فرص على العبد فى
كل نفس » أقامت عليه الدب وأقعدتها ؛ وما كان ذلك عن إخلاص ،
كلا ، وإنما عن حسد ؛ يقول صاحب الكواكب الدرية :

« وأكثر فى الأرض من علوم الحقائق فحسده فقهاء بلده ، فنسبوه
إلى عظامم بسبب قوله :

« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

ولم يزالوا به حتى أخرجوه وجماعته من ابلد إلى البصرة فمات
بها .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية :

« ولا يعرف من حياة سهل التى كانت تتسم ، فيما يظهر بالهدوء
واعترال الناس ، إلا حادثة واحدة هى بفيه إلى البصرة ، يابا فتنة الريح
(حوالى سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م) حين أنكر علماء الأهواز قومه
بأن التوبة فرض .

نمّا رأى سهل فى توبة فى صورة واضحة هينين من النصوص
التابى التى تحدث فيها سهل عن التوبة :

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾^(١) .
قال : التوبة النصوح ألا يرجع ، لأنه صار من جملة الأجابة ، والحجب
لا يدخل في شيء لا يحبه الحبيب .

وقال : علامة التائب أن لا تعده أرض ولا تطله سماء إلا هو متعلق
بالعرش وصاحب العرش ، حتى يفارق الدنيا ، ولا أعرف في هذا
الزمان قل من التوبة ، إذ ليس منا أحد أتاه ملك الموت إلا ويقول :
دعني أفعل كذا وكذا ، دعني أتفس ساعة ، ثم قال : إن التائب
المحصن ، [تاج] ولو (كانت توبته) مقادر ساعة ولو مقدار نفس
واحدة قل موته .

وقال سهل : ليس شيء في الدنيا من الحقوق أوجب على المخلوق
من التوبة . فهي واجبة في كل لحظة ولحظة ، ولا عقوبة عليهم أشد
من فقد علم التوبة ، فقل : ما التوبة ؟ فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وقال : أول ما يؤمر به المبتدئ التحول من الحركات المدمومة إلى
الحركات المحمودة ، وهي التوبة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه
الصمت ، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الحيوة ، ولا تصح
له الحيوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق
الله تعالى ، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب ، ولا يصح
له ما وصفنا حتى يستعين بالله عز وجل على جميعه

(١) التحريم الآية : ٨ .

فقيل : ما علامة صدق التوبة ؟ قال : علامتها أن يدع ما له فضلاً عما ليس له .

وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقطع من ذلك الذنب ثم يحظر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ ، كيف الحيلة فيه ؟ فقال : وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول فيصير المحبوب مكروهاً ، ولكن يقهر عزم القلب فيرجع في ذلك إلى الله عز وجل ، ويرفع إليه شكواه ، ويلزم نفسه وقلمه الإنكار ولا يفارقه ، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه ، قال : دعوا القال والقال والقليل كله في هذا الزمان ، عليكم بثلاث : « توبوا إلى الله عز وجل مما تعرفونه بيسكم وببسه ، وأدوا مظالم العباد التي قبلكم فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء ، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح ، لأن الأحداث قد كثرت والحظر عظيم » ، فاتقوا الله وألزموا أنفسكم التوبة ، وقال : التائب يتقى المعصية ويلزم لطاعة ، والمطيع يتقى الرياء ، ويلزم الذكر ، والذاكر يتقى العجب ويلزم نفسه التقصير .

فيل : ما التوبة ؟ قال أن تبدل بدل الجهل العلم ، وبدل النيان الذكر ، وبدل المعصية الطاعة ، والتوبة مداومة الاستعمار من تقصيره فيها .

قال سهل : ما عصى الله تعالى أحد إلا بجهل ، ورب جهل أورث علماً ، والعلم مفتاح التوبة ، والإصلاح صحة التوبة ، من لم يصلح

توبته فمن قريب تفسد توبته لأن الله تعالى يقول : ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ (١) .

وقال : « لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح معاناة أن يخرج به إلى غيره ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال ، كان رسول الله ﷺ يدعنا بعد الطهر ثلاثًا حتى تذهب فورة الدم » .

وقال : « النائم من يتوب عن غفلته في كل لحظة » .

ويقول : « ما من عبد أذنب ذنبًا ولم يتب إلا جره ذلك الذنب إلى ذنب آخر ، وأنساه الذنب الأول ؛ وما من عبد عمل حسنة إلا جرت تلك الحسنة إلى حسنة أخرى وبصره عقله تقصيره في الحسنة الأولى ، لكي يتوب من تقصيره في حسنة الماضية ، وإن كانت خالية صحيحة » .

(١) النحل الآية ١١٩ .

الفصل الخامس الطريق في جوّ الإخلاص

تحتل فضيلة لإخلاص في الإسلام مكانة كبيرة : إنها من الأسس الأصيلة في قبول الأعمال مع الإيمان ، واتباع السنة ، ولن يقبل الله الأعمال ما لم تكن خالصة لوجهه .

ولقد وردت في ذلك آيات كثيرة ، وأحاديث عدة ، فمن الآيات قوله تعالى :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ﴾^(١) .

فما لم يكن حالصاً فليس لله فيه نصيب ، أى لا يتقبله سبحانه ، ولا يشيب عليه ، وهو مردود في وجه صاحبه .

ويقول الله تعالى في حديث قدسى :

« أنا خير شريك ، من عمل لى عملاً وشرك فيه عبدي ، مركته لعبدي » .

ويقول رسول الله ﷺ .

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة : فارقها والله عنه رضى »

(١) الزمر الآية : ٣

وما من شك أن بين معنى كلمة « الإسلام » وكلمة « الإخلاص » صلة لا تنصم ، وإسلام هو أن يسلم الإنسان لله ؛ إنه إسلام الذات - ممثلة في القلب - لله وحده لا شريك له

ولقد سئل رسول الله ﷺ ما هو ؟

فقال : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

وهذا هو الإخلاص ؛ بل لقد سئل رسول الله ﷺ ، عن الإيمان ما هو ؟ فقال : الإخلاص .

ولهذه الأهمية لمعى الإخلاص في الإسلام ، اعتم به الصوفية اهتماماً كبيراً ؛ وقد احتل في تفكير سهل مكانة تتناسب مع أهميته ؛ يقول سهل :

« نظر الأكياس في الإخلاص فلم يجدوا شيئاً غير هذا ، وهو أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلايته لله عز وجل وحده لا يمارجه هوى ولا نفس » .

وإذا سألت سهلاً عن الإخلاص ما هو ؟

قال الإجابة ، فمن لم تكن له الإجابة فلا إخلاص له

وفال : الإخلاص على ثلاث معان :

إخلاص العبادة لله ، وإخلاص العمل له ، وإخلاص القلب له »

وليس أمر الإخلاص هيباً سهلاً ، فيما يرى سهل ، فلقد سئل :

أى شيء أشد على النفس ؟

فقال : الإخلاص .

قيل : ولم ذلك ؟

فقال : « لأنه ليس للنفس فيه نصيب » .

وقد يتنقى الإخلاص عن الفروض نفسها ، بل عن الإيمان . ولقد
سئل سهل عن ذلك :

هل يدخل الفرائض رياء ؟

فقال نعم ، قد دخل الإيمان لدى هو أصل الفرائض حتى أبطله ،
وصار بقاءً ، فكيف العمل ؟ فكل من لم يحب أحد عليه في ظاهره ،
ويعلم الله خلّافه من سره في أى حال كان ، فهو المرائى الذى لا شك
فيه .

ويحذر سهل كل التحذير من الرياء الذى به يتنقى الإخلاص ،
وكثيراً ما تحدث عن الرياء ، ومن ذلك ما يقوله بمناسبة تفسيره
لقوله تعالى :

﴿الذين هم يراؤون﴾^(١) قال :

هو الشرك الحمى ، لأن المنافقين كانوا يحسبون الصلاة في المساجد ،
إذا عابوا عن أعين المسلمين تكاسلو عنها ؛ ألا ترى كيف أثبتهم
أولاً مصليين ، ثم أوعدهم بالوعيد ؟

(١) الماعون الآية : ٦

واعلموا أن الشرك شركان : شرك في ذات الله عز وجل ، وشرك في معاملته ، فالشرك في ذاته غير معذور ، وأما الشرك في معاملته قال .

نحو أن يحج ، ويصلي ، ويعلم الناس ، فيشون عليه ، وهذا هو الشرك الخفي ، وفي الخبر :

« أحلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما حلص ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم إذا وصلتكموه ، فإنه للرحم وليس منه شيء لله » .

وقد قال النبي ﷺ للمعاد حين قال له : أوصني يا رسول الله ؟ قال : « أحلص لله يكفيك القليل من العمل » ، ولقد تحدث عن حيل الشيطان ليفسد على الإنسان إحلاصه ، وذلك بمناسبة قوله تعالى : ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾^(١) قال سهل .

ما الوسوسة ؟ فقال :

كل شيء دون الله تعالى فهو وسوسة ، وإن انقلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى ، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره ، ثم قال :

من أراد الدنيا لم ينج من الوسوسة ، ومقام الوسوسة من العبد مقام انفس الأمارة بالسوء ، وهو ذكر الطبع ؛ فوسوسة العدو في صدور كما قال :

(١) الناس الآية : ٤

﴿يوسوس في صدور الناس ، من الحق والناس﴾^(١) .

يعنى في صدور الجبر والإنس جميعاً ، ووسوسة النفس في القلب .
قال الله تعالى : ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من
حبل الوريد﴾^(٢) .

وإن معرفة النفس أحق من معرفة العدو . ومعرفة العدو أجل من
معرفة الدنيا ، وأسرُّ العدو معرفته ، فإذا عرفته فقد أسرته ، وإن لم
تعرف أنه العدو أسرك ، فإنما مثل العبد ، والعدو ، والدنيا ، كمثل
الصيد والطير والحبوب ، فالصيد إبليس ، والصير العبد ، والحبوب
الدنيا ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مصمغ ، فإن كنت صائماً
فأردت أن تفطر قال لك :

ما يقول الناس ؟ أنت قد عرفت بالصوم ، تركت الصيام

فإن قلت : ما لي وللناس ؟ قال لك :

صدقت أفطر ، فإنهم سيصعون أمرك على الحسبة والإخلاص في
فطرك .

وإن كنت عرفت بالعرلة ، فخرجت .

قال : ما يقول الناس : تركت العرلة .

فإن قلت : ما لي وللناس ؟

قال : صدقت ، اخرج فإنهم سيصعون أمرك على الإخلاص
والحسبة .

(١) الناس الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٢) ق الآية : ١٦ .

وكذلك هي كل شيء من أمرك يردك إلى الناس حتى كأنه يأمرك بالتواضع بل شهرة عند الناس .

ولقد حكى أن رجلاً من العباد كان لا ينصب ، فأتاه الشيطان وقال : إنك إن تغصب وتصبر كان أعظم لأجرك ، فقص به العابد ، قال : وكيف يجيء الغضب ؟ قال :

أتيتك بشيء فأقول من هو ، فقل هو ، فأقول : بل هو ، فأتاه بشيء .

وقال العابد : هو .

فقال الشيطان : لا بل هو .

فقال العابد : إن كان لك فادهب به ، ولم يعضب

فرجع الشيطان خائياً حزيناً ، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته ، فعرفه واتقى غروره .

ثم قال سهل : « عليك بالإخلاص تسلم من الوسوسة » اهـ

ونشئ من الصين الآتي مدى تقدير الإخلاص في رأس سهل

سئل عن خبر العبادات فقال :

« الإخلاص ، لقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ^(١) .

(١) الآية .

ويقول : « أفضل الصهارة أن يُطهر العبد من حوله وقوته ، وكل فعل أو قول لا يقارنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يتولاه الله عز وجل ، وكل قول لا يقارنه استثناء عوقب عليه ، وإن كان برًّا ، وكل مصيبة لا يقارنها استرجاع لم يشب عليها صاحبها يوم القيامة » اهـ .

وبعد : فإن الحديث الشريف الذى يتبدأ به الإمام البخارى كتابه العظيم : « الصحيح » يقول عنه بعض علمائنا : إنه ربيع الإسلام ، وهو :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما سوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وإذا كان الإخلاص يتبدى بالنية فإنه - فى اجو الإسلامى - يصاحب جميع الأعمال .

وإن من أعظم البراهين على صدق الإسلام ، وعلى صدق الرسول ﷺ ، هو هذه الأهمية الكبرى لفضيلة الإخلاص

الفصل السادس الطريق في جو المعراج

اتخذ الصوفية الاقتداء برسول الله ﷺ شعاراً لهم ، ولهذا الاقتداء كانوا صفوة أهل السنة ، ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتار به « أهل السنة » عن غيرهم من « الحوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو : علم « التصوف والإشارات » ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والصمائية .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمي » من مشايخهم قريباً من ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من يسب إلى شيء من بدع : القدرية ، والروافض ، والحوارج .

وكيف يتصور فيه من هؤلاء ، وكلامهم يلور على التسليم والتفويض ، والتبري من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

وإن الاقتداء برسول الله ﷺ أساس أصيل اليوم لمعرج المؤمنين إلى الله ، بل لا أساس غيره ، وذلك أن الكتاب الوحيد الصادق الآن للتدين إنما هو القرآن الكريم - إنه :

١ - بالأسلوب الإلهي هذا الأسلوب الذى لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلقه ، لأنه أسوب هو تنزيل من لدن حكيم خبير عليم .

٢ - لم يله تحريف ، فالقرآن الذى يتلوه المسلم الآ هر القرآن نفسه الذى كان يتلوه محمد ﷺ .

٣ - وهو لم يله تحريف ولا تسيل ، لأن الله سبحانه صمن حفظه : ﴿إنا نحن نرنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(١) .

٤ - وليس فى العالم الآن - شرقه وغربه - نص مقدس بالأسوب الإلهي ، وليس فى العالم الآن - شرقه وغربه - كتاب دينى إلا وقد ناله التحريف .

٥ - ومن أجل كل ذلك لا يتأتى الآن المعراج إلى الله إلا عن طريق الإسلام ، وعن طريق القدوة برسول الله ﷺ ، وكل ما يقال الآن عن صوفية فى الشرق أو فى الغرب عن غير طريق الإسلام إنما هو تهريج من الهريج ، وزيف من الزيف .

والتصوف - طريقا وعاية - : هو معراج إلى الله .

كيف رسم سهل هذا الطريق فى مقاماته :

إنه يعرف التصوف هذا التعريف الجميل :

(١) الحجر الآية : ٩

التصوف ليس رسماً ولا علماً ، ولكنه حق ، لأنه لو كان رسماً
لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تحلق بأخلاق
الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم ورسم .

والإمام الغزالي يستفيض في شرح هذه الفكرة من رايوتها العلمية
يقول :

« ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفاة ،
وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتزهد عن أخلاقها
المذمومة وصفاتها الحيثة ، حتى يتوصل بها إلى تحلية القلب عن غير
الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من
مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب
الحارث المحاسبى ، والمتفرقات الماثورة عن « الجيد »^(١) ..

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ومسنوه ومولده بالعراق ، وأبوه
كان يبيع الرجاج فلدلت بهال له القوريرى ، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور ،
وكان يمتهن فى حلقته بحصرتة وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين
٢٩٧ .

قال الرويدارى سمعت الحميد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهن المعرفة بالله
يصلون إلى ترك المحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل
فقال الحميد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عدى عظيمة ، والذي
يسرق ويربى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أحسن الأعمال =

والشبي^(١) ، وأبي يزيد البسطامي^(٢) ، قلنس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايحهم . حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالعلم والسماع ، فظهر لي أن أحص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالدوق والحال وتبدل الصفات .

= عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، وروى بقية ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دوما .

وقال الجيد : الطرق كلها مسدودة على الحق إلا من اقتضى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقننى به في هذا الأمر . لأن علما هذا مفيد بالكتاب والسنة .

وقال سحبا هذا مفيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلما هذا مفيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية) .

(١) بعدد المولد والثلاث ، وأصله من (أسروشة) ، صاحب الجيد ومن في عصره ، وكان شجع وقته حالاً وظرفاً وعلماً ، مالكي المذهب ، عاش سبعا وثلاثين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وقبره بعداد .

وكان الشبي إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول هذا شهر عظمه ربي فانا أول من يعظمه

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين ؛ قيل إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين . وقيل أربع وثلاثين ومائتين .

ودهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال هذا غير مأثور على أدب من اداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأثوراً على ما يدعيه ومن كلامه لو نظرتم إلى رحل أعطي من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تنفرو به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والهي . وحفظ الحدود الشرعية (انظر الرسالة القشيرية) .

وكم من الفرق بين أن يعدم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحًا وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه . عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .
والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .
فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأهوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسمع والتعم ، بل بالذوق والسلوك .

إن التصوف ليس علماً سسياً وليس بحثاً دراسياً ، وتلك حقيقة تبدو واضحة في هؤلاء الذين يكتبون كثيراً عن التصوف من المستشرقين ، أو من الباحثين الجامعيين الذين يدرسون التصوف من الخارج على أنه شكل من الأشكال أو رسم من الرسوم . كلاً ، إن التصوف ليس كذلك . ولأنه شيء آخر فإن كل من كتبوا عنه على أنه شكل قد أخطأهم التوفيق .. وإن ما كتبه المستشرقون عن التصوف إنما يعطى صورته لصلال الطريق إلى الحقيقة .

أما سهل رضى الله عنه فإنه يقسم طلاب الحق من مبدأ الأمر إلى

١ - مرادين .

٢ - مرادين .

ويذكر ذلك بمناسبة الآية الكريمة :

﴿عَمَّنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بَشَرِ صَدْرِهِ لِلْإِسْلَامِ﴾^(١)

وكان من الممكن أن يذكر ذلك أيضاً بمناسبة الآية الكريمة :

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٢) ..

بل إن هذه الآية الأخيرة أصرح ..

يقول سهل عن الآية الأولى :

إن الله مير بين المرید والمراد في هذه الآية وإن كان الجميع من عبده . وإنما أراد أن يبين موضع الخصوص من العموم ، فخص المراد في هذه السورة وغيرها ، وذكر المرید وهو موضوع العموم في هذه السورة ، أيضاً ، وهو قوله تعالى :

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٣) .

فهو قصد العبد في حركاته وسكونه إليه ، كما قال :

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(٤) .

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) الشورى : ١٣ .

(٣) الأنعام : ٥٢ .

(٤) الشورى : ٣٨ .

فكأن من وجد حال المريد والمراد فهو من فصل الله عبيه ، ألا ترى أنه جمع بينهما في قوله تعالى :

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(١) .

قيل له : فما الفصل بينهما ؟

فقال : المريد الذي يتكلف القصد إليه والعبادة لله تعالى ويطلب الطريق إليه ، فهو في الطلب بعد .

وامراد : قيام الله تعالى له بها ، والرجل يجد في نفسه ما يدل على المريد والمراد يدخل في الطاعات وقتاً يحد ما يحمله على الأعمال من غير تكلف وجهد ، نظراً من الله تعالى له ، ثم يخرج بعد ذلك إلى علو المقامات ، ورفيع الدرجات .

قيل له : ما معنى المقامات ؟

قال : هي موجودة في كتاب الله تعالى هي قصة الملائكة .

﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾^(٢) وقال :

﴿ولكل درجات بما عملوا﴾^(٣)

وقال في صفة المريد :

« شغل المريد إقامة العزم ، والاستغفار من الذنب ، وطلب السلامة

من الخلق »

(١) البقر : ٥٣ .

(٢) الصفات : ١٦٤ .

(٣) الأحقاف : ١٩ .

وقال سهل :

« إن الله عز وجل ينظر في القلوب والقلوب عنده ، فما كان أشدها تواضعا له حصه بما شاء ، ثم بعد ذلك ما كان أسرعها رجوعا ، وهما هاتان الخصلتان .

وقال : ما اطع الله على قلب فرأى فيه هم الدنيا إلا مقته ، والمقت أن يتركه ونفسه .

وقال : القلب لا يملكه أحد إلا الله تعالى ، ولا يطيع أحدًا إلا الله ، فإذا ذكرت به فضح شرك مع الله ، فإنه ليس من أحد وضعت شرك عنده إلا هتكه إلا الله عز وجل » .

ومن أوائل ما يبدأ به سهل الحديث عن مقتضيات كلمة التوحيد إذا قيلت بحق : إنه يقول :

فمن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله ، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه في شيء من أمره ونهيه ، في سره ، وعلايته ، أو يوالي عدوه ، أو يعادى وليه .

وكرر الاستجابة لله ورسوله يقف في طريقها حجب :

ويتحدث سهل مرة أخرى في بيان هذه الحجب ، فيقول :

إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والرهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته فلم يحجبهم بشيء

ويستفيض سهل مرة أخرى في بيان هذه الحجب فيقول :

الحجب السبعة التي تحجب الإنسان عن ربه عز وجل :
الحجاب الأول : عقله ، والثاني : علمه ، والثالث : قلبه .
والرابع : حشيتة ، والخامس : نفسه ، والسادس : إرادته . والسابع :
مشيئته .

فالعقل : باشتعاله بتدبير الدنيا ، والعلم : بمباهاته مع الأقران .
والقلب : بالغفلة والحشية : بإغفالها عن موارد الأمور عليها .
والنفس : لأنها مأوى كل بلية ، والإرادة : إرادة الدنيا والإعراض عن
الآخرة . والمشيئة : بملازمة الذنوب .

ويقول عن فتح القلب :

لا يفتح الله قلب عبد فيه ثلاثة أشياء : حب البقاء ، وحب الغنى ،
وهم غد ..

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير من نفسه ؟

قال : إذا لم ير وقتا غير الوقت الذي هو فيه .

ومن الحجب أركان إبليس ، ولإبليس أركان سبعة ، يقول سهل :
لإبليس سبعة أركان في سبع مراتب ، بها يال ولد آدم إلا من عصمه
الله :

أوله . ما لا يعنى ، ثم المعصية جملة ، ثم الإصرار عليها ، ثم
الغضب بالسرعة ، ثم الحقد إذا طال مكثه في القلب ، والاستخفاف .
وقلة أقدار الناس عده ، فإذا بلغ - المرء - هذا فلا تسأل عما وراء
ذلك .

فلما سئل سهل عن قوله : لا يعنى ، قال :

من اشتغل بشيء لا يعنيه من أمر آخرته بال منه العذر حاجته ،
فكيف غيره ؟

ثم قال : « من تلفظ بلسانه شيئاً مما لا يعنيه لم يوفق للصواب فيما
يعنيه » .

وكل من حاص فى الباطل لم يقيم بالحق إذا لزمه أو نزل به ، وكذا
حكم الله .

إن أهل الباطل لا يوفقون للرشد والحق ، تدخل الأشياء على الفارع ،
فأما المشغول فهو فى مرید .

ثم قال سهل :

أحسوا جوار نعم الله عليكم ، فإنها مارأت عن قوم فكادت ترجع
إليهم ، ولا يطلع على عثرات لخلق إلا محل جاهل ، ولا يهتد ستر
ما أطلع عليه إلا ملعون .

ومن هدا الوادى ما يقول سهل : ما نظر واحد إلى نفسه فأفصح ،
ولا أدعى لنفسه حالاً فتم له ، والسعيد من صرف نفسه عن أعماله
وأقواله ، وفتح له سبيل انفصال والإفصال ، ورؤية مئة الله عليه فى
جميع الأفعال .

ولكن مهما تعددت الحجب فيه - كما يقول سهل - ليس بين
العبد وربه حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من
الذلة والانكسار .

وسهل يتحدث أكثر من مرة عن الدعوى وعن المدعين ، ويبدو أن سهلاً ضاق به نفساً فأخذ يتنفس عن صيقه في هذه الكلمات القوية عن المدعين ، وهو على حق في كل ما كتبه عن هذه الفئة التي أضرت بالإخلاص وبالحلق في كل زم ، وس ذلك ما يقول :

أدنى الدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله . إما ذنب يتوب منه أو ير ، فيقول . غداً أعمل ، ولا يكون المدعى حائفاً ثباً ، ومن لم يكن خائفاً - أى يخاف الله - لا يكون آمناً ، وس لم يكن أما لم يطلع على الحزاة ، وما من أحد ادعى إلا وقد صبح حقوق الله من وجهين :

وجه من الظاهر ، ووجه من الباطن .

وقال : المذنب بإقراره بالذنب يسأل العفو فهو مصيب ، والمدعى للطاعة هو عاص لأنه يحكم لنفسه ما لم يحكم الله عز وجل له . وهناك شيان يذهبان نخوف الله من قلب العبد أصلاً : الدعوى والمعصية ، وصاحب الدعوى لا يقر بالحق

وقال : لا أعرف في الدنيا قوماً أرواح ألدائنا من الدين يدعون هذا الطريق طريق التصوف ، هم في روح وسرور ، لأنهم اسقطوا عن أنفسهم العبودية واستراحوا ، فلا صرياً يضربون ، ولا يحرك يحركهم هم أشد من الزنادقة ، لأن الزنديق تضربه وتحركه ، وهم يتكلمون في وجدان القلوب ويتلذذون به ويكذبون ، ويعتابون ، ويمجرون ولا يبالون ، فضلوا وأضلوا .

وقال . حكم المدعى أنه تصحبه هذه الثلاثة الحصال .
تصحبه التركبة لنفسه وقد نهى عن ذلك ، وجهله نعم الله عليه ،
وجهله بحاله .
وقال . أصل الهلاك الدعوى ، وأصل الحير الافتقار .

التقوى

ولا محص من كل ذلك إلا بالتقوى .

ويعلن سهل في صراحة أنه :

« لا تصلح التقوى إلا للمقتدى بالسي عليه السلام ، وبالصحابة .

ويقول سهل في جمال جميل بمناسبة قوله تعالى :

﴿ هو أهل التقوى وأهل المعرفة ﴾^(١) .

يعنى هو أهل أن يتقى فلا يعصى ، وأهل المعرفة لمن يتوب ، والتقوى هى ترك كل شئ مذموم ، فهى فى الأمر ترك التسويف ، وفى النهى ترك الفكرة ، وفى الآداب مكارم الأخلاق ، وفى الترغيب كتمان السر ، وفى الترهيب اتقاء الوقوف عند الحهل ؛ والتقوى هى . النهرى من كل شئ سوى الله ، فمن لزم هذه الآداب فى التقوى فهو أهل المعرفة .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾^(٢)

ويقول :

والمتقون هم الذين تبرءوا من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى ، ورجعوا إلى الدعوى والافتقار إلى حول الله وقوته فى جميع أحوالهم ،

(١) مدثر ٥٦

(٢) البقرة ٢١٠

فأعاهم الله تعالى ورزقهم من حيث لا يحسبون ، وجعل لهم فرحًا
ومخرجًا مما ابتلاهم الله به .

وإذا ما كانت القوى كان العمل :

أما العمل فإن لسهل فيه نظرية عميقة ، إنه يقول :

« ولا تصح التقوى إلا للمقتدى بالسبى ﷺ وبالصحابة » .

ويقول - فيما رواه محمد بن الحسن -

« أعمال البر يعملها البر والعاجر ، ولا يجتنب المعاصي إلا صديق »

وقال سهل : « من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو
غافل » .

ويقول : « ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من
اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق
مقرب »

وأما أعمال البر يعملها البر والعاجر » ويقول سهل عن المؤمنين
بالنسبة للعمل : « المؤمنون الذين وعدهم الله الجنة على ثلاثة مقامات :
واحد آمن وليس له عمل فله الجنة ، وآخر آمن وليس له إثم وعمل
صالحًا وهذا في صفة : ﴿ فند أنفلح المؤمنون ﴾ ^(١)

والثالث : آمن ثم أدنب ، ثم تاب وأصلح ، فهو حبيب الله فله
الجنة .

(١) المؤمنون . ١

والرابع : آمن وأحسن وأساء ، يتبين لهم عدد الموازنة ، والله تعالى بهم مشيئة والعمل الصالح ما كان حاليا من الرياء ، مقيد بالسنة كما يقول سهل ، ولا بد أن يكون العمل الصالح مبنيا على الإيمان والعلم بالإخلاص

يقول سهل : « الإيمان بالفرائض وعلمها فرض ، والعمل بها فرض ، الإخلاص فيها فرض ، والإيمان بالسنة فرض بأنها سنة وعلمها سنة والعمل بها سنة ، والإخلاص فيها فرض ، والإخلاص بالإيمان والعمل بها » .

ويقول سهل بمسايسة قوله تعالى : ﴿ لِيَلْوَظَّكُمْ أَتَمَّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(١) ال : « أى تصوبه وأخلصه ، فإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم قبل ، وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون صوابا خالصا ، والخالص الذى يكون لله تعالى بإرادة القلب ، والصواب لذى يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب » .

ويقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾^(٢) .

ويفسر سهل ذلك فيقول :

أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحبة الصلاح ، معاه لا يصلح و ؟ ما كان خالصا لا يكون لغيرى فيه أثر وهم الذين أصلحوا برزقهم مع الله تعالى وانقصوا بالكلية عن جميع ما دونه .

(١) هود ٧ .

(٢) الأنبياء : ١٠٥

الذكر

ومن العمل : الذكر . ولقد سبق أن كتبنا في استفاضة عن الذكر في كتابنا « العباداة » ، وكتبنا عنه في استفاضة في كتاب خاص بعنوان ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ .

وذلك أن من أهم الطرق الموصلة إلى الله : الذكر ؛ وقد حث عليهما القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول ﷺ ، وهو عماد السبل المؤدية إلى القرب .

ولقد هدد الله سبحانه الغافلين عن ذكره فقال : ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض به شيطاناً ﴾^(١) .

ويقول سهل في شرح ذلك :

« قد حكم الله أنه لا يعرض عبد عن ذكره وهو أن يرى بقلبه شيئاً سواه ساكناً إياه إلا سلط الله عليه شيطاناً ليضلّه عن طريق الحق وبغريه » .

ويقول سهل عن الذكر :

« حياة القلب الذي يموت بذكر الحى الذى لا يموت » .

إن الذين أعطاهم الله تعالى فهم القرآن هم حاسة الله وأوليأؤه لا هم للمدنيا ولا الدنيا منهم فى شيء ، ولا فيما فى الجنة رغبوا أخذ منها .

(١) الزعرور آية : ٣٦ .

الدنيا فلم يبالوا ووهبها لهم فردوها كما ردها نبيهم ﷺ ، لما عرضت عليه ، طرحوا أنفسهم بين يديه رضا وسكوناً إليه ، وقالوا :

لا بد لنا منك أنت أنت لا نريد سواك ، فهم المتفردون بالله ، كما قال النبي ﷺ سيروا سير المتفردين إلى رحمة الله .

قالوا : ومن المتفردون يا رسول الله ؟

قال : الذين اهتموا بالذكر لله تعالى ، يأتون يوم القيامة خفافاً قد حط الذكر عنهم أثقالهم قال سهل :

هم المشايخ المستهترون^(١) في الذكر لله تعالى مجالسون كما قال النبي ﷺ يقول الله تعالى :

« أنا جليس من ذكرني ، حيث ما التمسني وجدني .

وقال تعالى : ﴿فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢) .

ويرى سهل أن الآية القرآنية الكريمة :

﴿فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾^(٣) .

تشير - مع معناها - إلى القلب ، إنه يقول :

الإشارة في البيوت إلى القلب فمعها ما هو عامر بالذكر ، ومعها ما هو خرب بالعقلة ، ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم »

(١) المستهترون : يفتخ التامس هم المكثرون من الذكر

(٢) البقرة : ١١٥ .

(٣) البمل : ٥٢ .

والذاكر على الحقيقة هو - فيما يرى سهل - « من يعلم أن الله مشاهدته يراه بعينه قريباً منه فيستحي منه ، ثم يؤثره على نفسه وعلى كل شيء من جميع أحواله » .

ويقول : « من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر فقد ضيع حاله » .
ولكن الحاتمة الجميلة التي نحتم بها موضوع الذكر عند سهل هي قوله :

« من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر ، فقد ضيع حاله » .

الحمد

ومن الذكر : الحمد :

والحمد لله هو مفتاح سورة الفاتحة : رددته معها كل يوم أكثر من مرة في سجودنا ، وهو من جملة الباقيات الصالحات التي أعلن عنها رسول الله ﷺ وهي : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ،

عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، جالساً في الخلقة ، إذ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد رسول الله ﷺ .

وعبيكم السلام ورحمة الله وبركاته :

فلما جلس الرجل قال :

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا أن يحمد ويبغى له .

فقال له رسول الله ﷺ : كيف كنت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبي ﷺ :

« وألدى نفسي بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كنهم حريص

على أن يكتبها ، فما ذرّوا كيف يكتبونها حتى رفعوه إلى دى العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبيد^(١) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - فيما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه - أن رسول الله ﷺ :

« حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضلت^(٢) بالملكين^(٣) فلم يدريا كيف يكتبانها ؟ فصعدا إلى السماء ! فقالا :

يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف يكتبها ؟

قال الله وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبيد ؟

قالا : يا رب إنه قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباه كما قال عبي حتى يلتقى فُجزيه بها » .

ويقول سهل فى الحمد :

« ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، وانعمة لئن أُلهم بها الحمد أفضل من النعمة الأولى ، لأن بالشكر يستوحب المزيد »

(١) رواه أحمد ورواه ثقات ، والنسائي ، وابن حبان فى صحيحه إلا أنها قالوا

« كما يحب ربنا ويرضى »

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الذكر والدعاء » ومعنى عضلت صعب

عليهم تقدير ثوابها .

الشكر

ويتصل بالحمد : الشكر

ويقول الله تعالى :

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(١) ويقول سهل : « أدنى الشكر أن لا تعصيه بنعمه ، ومرة أخرى يقول بهذا المعنى أول درجات الشكر : الطاعة .

وحكما فسر سهل قوله تعالى : ﴿قال رب أرعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي﴾^(٢) .

قال : أي ألهمني التوبة والعمل بالطاعة ، ويقول في النهاية مع سهل :

« ليس لبعد أن يتكلم إلا بأمر سيده وأن يبطش إلا بأمره وأن يمشي إلا بأمره ، وأن يأكل ويصام ويتفكر إلا بأمره ، وذلك أفضل الشكر الذي هو شكر العباد سيدهم » .

ويسلم الذكر والحمد والشكر على التوكل .

ويرغم بعض الناس أن العمل الكسب يافى التوكل ، فما حكم الدين ؟

(١) إبراهيم : ٧ .

(٢) النمل : ١٩ .

لقد رأى سيلما عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعض الناس ،
ولاحظ أنه لا يبدو عليهم أنهم من أهل العمل والكسب ، فسألهم .
من أنتم ؟

فقالوا : متوكلون .

فقال : كذبتُم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل : من ألقى حبة
فى الأرض وتوكل على الله ، إن الحو الإسلامى كله ، ينادى بالعمل
والكفاح ، فى سبيل الرزق والقوت ، ويبين أن العمل والكفاح لا يتناهى
والتوكل ، بين ذلك من الناحية النظرية ، ومن الناحية التطبيقية .

أما الناحية النظرية ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فمشوا فى مأكليها واكلوا من
رزقه ﴾ (١) .

ولقد استفاض ، رسول الله ﷺ فى بيان وجوه الكسب ، ومما ورد
فى ذلك ما رواه أبو داود ، عن أنس رضى الله عنه ، أن رجلاً من
الأنصار أتى النبى ﷺ فسأله ، فقال النبى له :

« أما فى بيتك شيء ؟ »

قال بلى جلس - وهو نوع من الكساء - ليس بعصه ، وبسوط
بعصه ، وقعت - وهو قدح للشراب - نشرب فيه الماء .

فقال رسول الله ﷺ :

« ائتنى بهما » .

(١) المائدة : ١٥ .

فأتاه بهما فأحدهما رسول الله ﷺ ، بيده وقال :

« من يشتري من هذين ؟ »

قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله ﷺ :

« من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا .

قال رجل : أنا أحدهما بدرهمين ، فأعطيهم إياه ، فأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري وقال : « اشتر بأحدهما صاعاً فابده لي أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به » .

فأتاه به ، فشدد رسول الله ﷺ عوداً بيده ، ثم قال : « اذهب فاحتصب وبع ولا أرينك خمسة عشرة يوماً » .

ففعل فحساء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً ، وبعضها طعاماً ، فقال له رسول الله ﷺ :

هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة »

هذا من الناحية النظرية .

ومادا عن العمل من الناحية التطبيقية ؟

روى البخاري رضي الله عنه . « أن المهاجرين حينما قدموا المدينة أتى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فأراد سعد وكان من أكثر الأنصار مالاً ، أن يشاطر عبد الرحمن ماله .

فقال له عبد الرحمن . بارك الله لك في أهلك ومالك ،

ثم سأل عن السوق فدلوه عليه ، فذهب وبيع واشترى ، ثم عد
ومعه بعض السلع وتابع الأمر من الغد .

وبعد قليل جرى المال في يده فتزوج واستقل في بيت وأصبح فيما
بعد من أكثر المسلمين أموالاً ومن أكثر المسلمين صدقة » .

وهذا أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لما بوع بالخلافة أصبح
داهماً إلى السوق ليناجر كمادته ، فلاحق به الصحابة وتكاثروا عليه
ليمنعوه قائلين كيف يفعل ذلك وقد أقمت لحلافة النبوة ؟ فقال
رضي الله عنه : لا نشغوني عن عمالي فإنني إذا ضيعتهم كنت لغيرهم
أضيع فمضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

ويستحيل أن يقال : إن الصديق ، أو عبد الرحمن بن عوف لم يكونا
متوكلين ، فمن أولى إذن بالتوكل مهما ؟ .

ولمثل الأعلى للكفاح الدائب الدائم إنما يتمثل في رسول الله ، ﷺ ،
وهذا الكفاح الدائب الدائم كان يصاحبه التوكل ويسبقه في كل مشروع
ويستمر بعد المشروع لأنه سبحانه :

﴿إليه المصير﴾^(١) .

ولأن الوضع عند المؤمن هو ما عبر الله عنه :

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾^(٢) .

(١) عامر . ٣

(٢) هود . ١٢٣ .

والخوف من مؤمن بقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١) .

وقد سبق أن كتبنا عن التوكل عند سهل ، وهذه نبوص له في التوكل :

إنه يقول : « التوكل » الاسترسال مع الله على ما يريد .

ويقول : « ما التوكل » ؟

التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والتبري من الخول والقوة .

ويقول : « من طعن في التوكل ، فقد طعن في الإيمان »

قال تعالى . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

وهذه المقامات لا يستقيم أمرها ، ولا يقر لها قرار إلا إذا تحلى الإنسان بفضيلة .

(١) الحج : ٤١

(٢) المائدة : ٢٣ .

الصبر

وقد تحدث سهل عن الصبر أكثر من مرة في استفاضة أحياناً ،
وفي إيجاز أحياناً أخرى .

ومن أجمع أحاديثه عن ذلك ما يلي .

قيل : ما الصبر ؟

قال : لا عمل أفضل من الصبر ، ولا ثواب أكثر من ثواب الصبر ،
ولا زاد إلا التقوى ، ولا تقوى إلا بالصبر ، ولا معين على الصبر لله
إلا الله عز وجل

قيل : الصبر من الأعمال ؟

قال : نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد ، لا يصح
أحدهما إلا بصاحبه

قيل : ما أحل الصبر ؟

قال : أجله انتظار الفرج من الحق .

قيل : فما أصل الصبر ؟

قال : محاهدة النفس على إقامة الطاعات ، وأدائها بحكامها
وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها

قيل : والناس في الصبر كيف هم ؟

قال : الناس في الصبر صنفان ، فصف يصرون للديار حتى يبالوا

مها ما تشتهي أنفسهم فهو الصبر المذموم ، وصف يصرون للآخرة طلباً لثواب الآخرة وخوفاً من عذابها .

قيل فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع .

قال : الصبر للآخرة له أربعة مقامات . فثلاث منها فرض ، والرابع فضيلة . صبر على طاعة الله عز وجل ، وصبر عن معصيته ، وصبر على المصائب من عده ، أو قال : صبر على أمر الله عز وجل ، وصبر على بهيه ، وصبر على أفعال الله عز وجل ، فهذه ثلاثة مقامات منه وهي فرض ، والمقام الرابع فضيلة ، وهو الصبر على أفعال المخلوقين ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَنْ صَبِرَ لَهُو حَيْرَ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(١) .

أذن بالمثل وفضل الصبر ؛ ثم قال : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٢) ولا يعين عليه إلا هو » والهمة المقيمة في الصبر أن يصاحبه : الرضى وحسبما يشرح سهر قوله تعالى . ﴿ فَصَبِرْ حَمِيلٌ ﴾^(٣) يقول : الصبر مع الرضا قيل : وما علامته ؟ قال : أن لا يجرع فيه . فمثل . بأى شيء يحصل التحمل بالصبر ؟

قال : بالمعرفة بأن الله تعالى معك ، وبراحة العافية ، فإنما الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل ، ثم قال :

(١) النحل ١٢٦

(٢) النحل ١٢٧

(٣) يوسف ١٨٠

عجبت من لم يصبر ، كيف لم يصبر للحال ورب العزة يقول .
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) .

إن ما سبق هو بعض مارل السائرين إلى الله التي تسلم إلى الولاية ،
وقبل أن نتحدث عن الولاية مروى عن سهل ما بين ، زيادة في إيضاح
الفكرة عن مارل السائرين للحق سبحانه :

« نادروا بالتوبة من السيئات حتى تأمنوا العقوبة ، وتصيروا أحباب
الله ، فإن الله يحب التوابين » .

ويقول : « إن الأمراض والأسقام ، والأحزان والمصائب : إنما هي
كفارات للصغائر ، وأما الكبائر فلا يسقطها إلا التوبة ، ومثله كمثل
خبر يصيب الثوب فلا يقلعه إلا الصابرون أجمعين ، والمعالجات بالحل
والأشنان وغيره .

ومثل الصغائر كمثل قليل دبس^(٢) يصيب الثوب يذهبه الريق ،
وقليل من الماء فقليل يا أبا محمد أليس قد روي أن المصائب كفارات
وأجر ؟ فضحك ، وقال إن المصائب إذا ضم إليها الصبر والاحتساب
تكون كفارة وأجرًا كلاهما ؛ فأما إذا لم يصبر عليها ولم يحتسبها تكون
كفارات وحطط لا أجر فيها ولا ثواب :

وبين ذلك أن المصائب فعل غيرك ولا تثاب على فعل غيرك ، وصبرك
واحتسابك فعل لك فتؤجر وتثاب .

(١) البقرة : ١٥٣

(٢) ما يسيل من الرطب .

وقيل : أى العمل يعمل حتى يعرف عيوب نفسه ؟ قال :
لا يعرف عيوب نفسه حتى يحاسب نفسه فى أحواله كلها .
قبل . فأى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟
قال : إذا ترك التدبير .

قبل فأى منزلة إذا قام بها أقام الصديق ؟
قال « إذا توكل عليه فيما أمره به ونهاه عنه » .
ويقول رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى
﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ﴾^(١) يقول :
« العادة رينة العارفين ، وأحسن ما يكون العارف إذا كان فى ميادين
العبودية والخدمة يترك ماله لما عليه » .
ويقول « لا يكمل للعبد شىء حتى يصل علمه بالخشية ، ولعله
بالورع ، ووروعه بالإحلاص ، وإحلاصه بالمشاهدة ، والمشاهدة بالتبصر
لما سواه » .

وكان يقول : يلزم الصوفى ثلاثة أشياء :
« حفظ سره ، وصيانة بقره ، وأداء فرضه » .

(١) النحل ٠ ٣٦

الولاية

يقول الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١) .

قد حدد الله سبحانه لولي بأنه المؤمن المتقى .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم كشأنه دائماً في اتحاد القرآن والسنة ، إماماً له فيقول : « الولي من تواتت أعماله على الموافقة » وقال : « من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه » .

ويتحدث سهل عن الأولياء ودرجاتهم بمناسبة تفسيره للآية القرآنية الكريمة : انى صدرنا بها هذا موضوع فيقول هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ :

« إِذَا رُؤُوا ذَكَرَ اللَّهُ ، وَهُمْ يَجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ ، السَّابِقُونَ إِلَيْهِ ، الَّذِينَ تَوَاتَتْ أَعْمَالُهُمْ عَلَى الْمَوَافَقَةِ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

وقال : اجتمع الحير كله في هذه الأربعة وبها صاروا أبدالاً : أحماص الطرون ، والاعتزال عن الحق ، وسهر الليل ، والصمت .

قبل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

(١) يوس : ٦٢ - ٦٤ .

قال . لأنهم يدلون الأحوال ، أخرجوا أئدائهم عن الخيل في
سرهم ، ثم لا يرالون يتقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ،
فهم أئدا في امريد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفصل أم الأئدان ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغت وثبتت أركانهم ، والأئدال يقلبون من
حال إلى حال .

وما دام لإيمان يزيد وينقص فهناك إذن درجات في الولاية ، رسم
هذه الدرجات بأى اسم شئت ، فإنه كما يقول الأصوليون
لا مشاحة في الاصطلاح .

والأمر في هذا التقسيم ، وفي التسمية لا يشتر جدلاً إلا عند من
ديدهم الجدل ، فإنه ما دام هناك زيادة ونقص فهناك درجات ، وما دام
هناك درجات ، فإنه يمكن وضع أسماء لهذه الدرجات والله سبحانه
قسم أوليائه إلى درجات كثيرة يقول سبحانه

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ . ذلك الفصل
من الله وكفى بالله علماً^(١) .

(١) النساء : ٦٩ - ٧٠ .

ومن أولياء الله المتعون ، والأوابون ، والصبرون والمحسنون ،
والمقربون ، والسابقون والسابقون ، وهكذا .
وإذا استولى الله ولياً علمه

ومن طرائف ما يروى في ذلك حادثة الإمام الشعراني مع الإمام
الخواص :

لقد كان الإمام الشعراني رضي الله عنه يمر بالإمام الخواص
وهو أمي - يجد الناس تلتف حوله ونسأله : وكان الإمام الشعراني
- قبل اتحاد الإمام الخواص شيخاً له - يصيق بذلك درعاً فيقول في
مواجهة الخواص ، وعلى مسمع من الناس :
« ما اتخذ الله من ولي جاهل » .

وتكرر ذلك والإمام الخواص لا يلتفت إليه .

وفي يوم من الأيام التفت إليه في هدوء وقال له : « يتحذه ويعصمه »
وبدأ الإمام الشعراني العالم يتقرب شيئاً فشيئاً إلى الإمام الخواص
الأمي ، وانتهى الأمر بأن اتخذته شيخاً وكتب عنه هذا الكتاب النفيس
المسمى :

« درة العواص في أجوبة الخواص » .

ومن هذا القليل يقول الإمام مهمل :

« إن الله تعالى ما استولى ولياً من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن ،
إما طاهراً وإما باطلاً ؛ قيل له :

إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟

قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد .

قال أبو بكر السجزي : سمع سى هذه الحكاية النجيد فقال : صدق سهل كان عندما بعدد عدد أسود أعجمي السان سألته عن القرآن آية آية فيجيبنا عن ذلك بأحسن جواب وهو لا يحفظ القرآن وتلك دلالة ولايته .

ومع ذلك فإن سهل وهو الإمام المروى - يحذر الأولياء فيقول . « لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولي الله ، فلو لم يحف أنه مكر لكان ممكوراً »

وأعلى درجات الولاية هي درجة الصديقية .

ولقد سئل سهل عن هذه الدرجة فأخذ يتحدث عنها وعن أخلاق الذين ارتقوا بتوفيق الله إليهما ، وعن أخلاق الأولياء على وجه العموم .

لقد سئل : من الصديقون ؟

قال « الدين عدواً أنفاسهم بالنسيح والتقديس ، وحفظوا الحوارح والحواس فصار قلوبهم ومعلهم صدقاً ، وصار ظاهريهم وباطنيهم صدقاً ، وصار دخولهم في الأشياء وحروجهم عنها بالصدق ، ومرجعهم إلى مقعد صدق بقد صدق عبد ملك مقتدر » .

ومن أخلافهم - كما يروى عنه أبو محمد الحريري - يقول :

« من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله ، لا صادقين ولا كاذبين ، ولا يغتابون ولا يغتاب عندهم ، ولا يشبهون بطونهم ، وإذا وعدوا

م يحلفوا ، ولا يتكلمون إلا والاستثناء في كلامهم ، ولا يمرحون أصلاً .

ومما سة تفسير سهل لقوله تعالى : ﴿وَمَا رَزَقَاهُمْ يَفْقُونَ﴾ ^(١) .
يقول : « إن الله تعالى وصف بذلك من حبله بحيلة متعالقاً بسبب
من سببه غير منفث عن مراقبته ، وهم الذين لم يختاروا قط اختياراً ،
ولا أرادوا شيئاً دونه ، ولا اختياراً دون اختياره لهم ، كما اختاره هم ،
ولا أرادوا شيئاً يصرفهم عنه ، ومن غيره هم مبرءون » .
وبصاحب الولاية في جميع مراحلها :

الحب لله

وقد تحدث الله سبحانه أنه . ﴿يحب الوايس﴾^(١) و ﴿يحب المتطهرين﴾^(٢) و ﴿يحب المحسين﴾^(٣) . وهكذا .

ومفهوم سهل في المحبة مفهوم دقيق ، إنه يقول : « المحبة أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتكره ما يكره » ويرى سهل أن الحب لله يلازمه الخوف ، والمحبة لا يمارقه الخوف ، ومن هنا يروى عن سيدنا أبي بكر أنه قال :

« لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الحبة » .

ويقول سهل : « البيران أربعة ، نار الشهوة ، ونار الشقاوة ، ونار القطيعة ، ونار المحبة » .

فإن الشهوة تحرق الطاعات ، ونار الشقاوة تحرق التوحيد ، ونار القطيعة تحرق القلوب ، ونار المحبة تحرق البيران كلها

ولقد حكى أن علي بن الحسين رضي الله عنه دخل مغارة مع أصحاب له فرأى امرأة في المغارة وحدها .

(١) البقرة - ٢٢٢

(٢) البقرة - ٢٢٢

(٣) المائدة - ٩٣ .

فقال لها : من أنت ؟

قالت : أمة من إماء الله إليك عني لا يذهب الحب .

فقال لها على رضى الله عنه : وما الحب ؟

قالت : أحفى من أن يُرى ، وأبين من أن يخفى كموه فى الحشاء
ككمون النار فى الحجر ، إن قدحتهُ وُرى ، وإن تركته توارى ، ثم
أنشأت تقول

« إن المحبين فى شغل لسيدهم

كفتة الكهف لا يدرون كم لشوا »

ولقد قين لسهل : أى شيء يفعل الله بعده إذا أحبه ؟

قال يهيمه الاستغفار عند التقصير ، والشكر له عند النعمة .

ويقول : قال الله لأدم يا أدم بى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا
غير فصلى ، وحاف غير عدلى م يعرفى ، يا آدم إن لى صفوه وصائى ،
وحيرة من عادى ، أسكتهم صلبى ، بعينى من بين خلقى ، أغرهم
بعزى ، وأقربهم من وصى ، وأسحهم كرامتى ، وأبجح لهم فصلى ،
وأجعل قلوبهم حرائر كسبى ، وأسترهم برحمتى ، وأجعلهم أمنا بين
ظهري عادى ، فبهم مطر السماء ، وبهم أنت الأرض ، وبهم أصرف
البلاء ، وبهم أوليائى وأحباى .

درجاتهم عالية ، ومقاماتهم رفعة ، ومهمهم بى متعلقة ، صحت
عرائهم ، ودمى فى ملكوت عبرى فكرتهم هزته قلوبهم

بذكرى ، فسقيتهم بكأس الأس صرف محبتي ، فطال شوقهم إلى
لقائي ، وإنى إليهم لأشد شوقا ؛

يا آدم من طوبى من خلقى وجدى ، ومن طلب عيرى لم يحدى .
فطوبى يا آدم لهم ثم طوبى لهم ثم طوبى لهم وحسن مات .

يا آدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على عمران ذنوب الدنيا
لكرامتهم على « اهـ » .

وبعد : فإننا نحتم هذا بهذه الكلمة الحميلة سهل :

« طوبى لمن تعرف بالأولياء ؛ فإنه ربما استدرك ما فاتته من الطاعة ،
وإن لم يستدرك شفعوا فيه ؛ لأنهم أهل فتوة » .

الفضل السابع

الطريق من زاوية الولاية والكرامات

سبق أن تحدثنا في بعض كتبنا عن الكرامات ، وأنها مذكورة ، في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية الشريفة .

والواقع أن الخلاف الذي يثار في هذا الموضوع عادة إنما هو في إثبات كرامة معينة لشخص معين ، وهذا الخلاف أمره هين ، ومن أنكر كرامة معينة وقعت بالسنة لشخص معين ، عيسى معنى ذلك أنه أنكر الكرامات حمداً ، وإثبات الكرامات محل اتفاق بين أهل السنة .

ويتحدث سهل عن الكرامات وعن الأولياء في كثير من المصنوع المتأثرة هنا وهناك ، وحديثه عنها يتسم بالحد وبالعمق ، وهو يتحدث عن تجربة ومشاهدة ، ويتحدث عن منطق وعقل .

وتأمل أولاً ما يقول سهل : « أظهر الله تعالى آياته لأوليائه ، وجعل السعيد من عباده من صدقهم على كراماتهم ، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك ، وصرف قلوبهم عنه ، ومن أنكر آيات الأولياء ، فإنما يكر قدرة الله تعالى ، فإن القدرة تظهر على الأولياء الآيات ، لا هم بأنفسهم يقدرون على إظهارها ، كما قال :

﴿ويزيكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون﴾^(١) .

ويتحدث سهل - عن مخالطة ومشاهدة - عن بعض الكرامات
فيقول :

« محالصة الولي بالناس دلّ ، وتفردّه عرّ ، وما رأيت أولياء الله تعالى
إلا مفردين ؛ إن عبد الله بن عبد الله بن صالح رحمهم الله ، كان رجلاً
به ساقطة جبيلة ، وموهبة جريئة ، وكان يهرّ من بلد إلى بلد ، حتى
يأتي مكة ، فصال بها مقامه فقلت له :

قد طال مقامك بها ؟ فقال : وم لا أقيم بها ، ولم أر بقعة ينزل
فيها من الرحمة والبركة منها ؟ يطوف الملائكة حول البيت عدوة
وعشية ، على صور شتى ، لا يقطعون ذلك ، وإن فيها عجائب كثيرة ،
ولو قلت كلما رأيت : لصغت عنه قلوب أقوام ليسوا بمؤمنين

قلت : أسألك بحق الحق ، أن تحبرني بشيء من ذلك ؟

فقال ما من وليّ الله تعالى صحت ولايته إلا وهو يحصر في هذه
البلد في كل ليلة جمعة ؛ ولقد رأيت رجلاً يقول له مالك بين القاسم
ابن جليل رحمه الله تعالى ، ليلة هاهنا ، ورأيت على يده غمراً فقت .

إنك لقريب العهد بالأكل ؟ فقال :

استغفر الله فإنني منذ أسبوع لم أطعم شيئاً ، ولكنني أطعمت والدتي
وأسرعت لأدرك صلاة الفجر هاهنا جماعه ، وبين مكة وبين الموضع
الذي جاء منه سبعمائة فرسخ ، فهل أنت مؤمن بذلك ؟ فقلت : بئس .

فقال : الحمد لله الذي أراني مؤمناً .

وقال ابن سالم كنت عند سهل رحمه الله تعالى ، فأتاه رجلان
بعد صلاة العصر وجعلوا يحدثان ، فقلت في نفسي لقد أظننا عبده ،

وما أراهما يرجعان في هذا الوقت ، ودهت إلى مرلى لأهين لهما عشاء ،
فلما رجعت إليه لم أر عنده أحداً ، فسألت عن حالهما فقال .
« إن أحدهما يصلي المغرب بالمشرق والآخر بالمغرب ، وإنما أتيتني
زائرين » ا هـ .

ولقد سئل سهل مرة عن كفة إدراك منزلة الكرامات فقال :
« من رهد في الدنيا أربعين يوماً صادقاً محلياً فقد ظهرت الكرامات
من الله عز وجل له ، ومن لم تظهر له فهو لما فقد من رهد من الصدق
والإخلاص » ا هـ .

ولكن من هم الأدياء ؟ يتحدث سهل عن ذلك بمسابقة قوله تعالى :
﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(١) قال سهل :
« هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ ، إذا رثوا ذكر الله ، وهم
الجاهدون في الله ، السابقون إليه ، الذين توات أفعاهم على الموافقة ،
أولئك هم المؤمنون حقاً .

وقال : اجتمع الحير كله في هذه الأربعة ، وبها صارو أبدالاً :
أحماص البطون ، والاعتزال عن الحق ، وسهر الليل ، والصمت .
قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

قال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الخيل هي
سرهم ، ثم لا يرانون يتقنون من حال إلى حال ؟ ومن علم إلى علم ،
فهم أبدالاً في المرید من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

(١) يوس : ٦٢ .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال . لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال يقلبون من حال إلى حال .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾^(١)

« إن الله تعالى خلق القلوب وأقفل عليها بأفمال ، وجعل مفاتيحها حقائق الإيمان فلم يفتح بتك المفاتيح على التحقيق إلا قلوب المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وأنبياءه ، والصديقين وأوليائه .

وسائر الناس يخرجون من الدنيا ولم يفتح أقفال قلوبهم والرهاد والعباد والعلماء خرجوا منها وقلوبهم مغلقة ، لأنهم طلبوا مفاتيحها في العقل فصلوا الطريق ، ولو طلبوه من جهة التوفيق والفضل لأدركوه ، والمفتاح أن تعلم أن الله قائم عليك ، رقيب على حوارحك ، وتعلم أن العمل لا يكمل إلا بالإحلاص مع المراقبة »

ولقد تحدث سهل عن الأنبياء والأولياء معاً في مواضع من تفسيره فقال :

« وما من أحد في الدنيا إلا عليه يديس معه الله فأسره ، إلا الأسياء صلوات الله عليهم والصديقون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم في مقاماتهم ، وعرضوا اطلاع الله عليهم في جميع أحوالهم ، فعلى قدر

(١) محمد : ٢٤

مشاهدتهم يعرفون الابتلاء . وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يظلمون لعصاة ، وعلى قدر كفرهم وفافتهم إليه يعرفون الصبر والنفع ، ويرددون علماً وفهماً ونظراً .

ثم قال : ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد - ﷺ - من الخدمة ، وما من مقام خدمة الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى أن بعث نبيا - ﷺ - إلا وقد خدم الله بها نبيا - ﷺ .
وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿السابقون السابقون﴾ (١)

« هم الدين سبق لهم من الله الاختيار والولاية قبل كونهم ، المقربون في منازل القرب وروح الأنس ، وهم الذين سبقوا في الدنيا : فسق الأنبياء إلى الإيمان بالله ، وسبق الصديقون والشهداء من الصحابة وغيرهم إلى الإيمان بالأنبياء » .

وقال سهل : « انتهت همم العارفين إلى المحب فوقعت مطرقة ، فدخل لها بالدخول فدخلت فسلمت ، فخلع عليها حلع التأيد ، وكتب لها من الرقع براءات .

وإن همم الأنبياء صلوات الله عليهم جالت حول العرش فألبست الأنوار ، ورفع منها الأقدار ، وانصلت بالحر ، فأفسى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرفة به له .

وقد آثر درجات الصديقين أول الأحوال بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وإن نبيا - ﷺ - عند الله تعالى يجمع أحوال الأنبياء

ورساسة قوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(١)
قال :

يعنى ارزقنى قرينة أوليائك لأكون من جملتهم ، وإن لم أصل إلى
مقامهم .

أما مهمة الأوتياء فإن سهلاً يتأسس في تحديدها مع مهمة الرسل ،
وهى الاقتداء برسل الله في نشر الدعوة النبوية ، والجهاد في سبيلها ،
إنه يقول :

« إن الله تعالى أحد عني أوليائه التذكرة لعباده ، كما أحد البليغ على
أنبيائه صدوات الله عندهم أجمعين .

فعلى أولياء الله أن يدلوا عليه ، فمتى قعدوا عن ذلك كانوا
مقصرين .

ومع ذلك فأرحو أن يتدر القارئ الكريم قول سهل ، وقد سئل
عن الكرامات فقال : « وما الكرامات ؟ إن الكرامات شيء يقتضى
لوقته ، ولكن الكرامات أن تبدل حلقاً مدموماً من أحلافك بحلق
محمود .

وقال له تلميذه عبد الرحمن بن أحمد :

يا سيدى : ربما أتوصاً ولما الذى يسيل من أعصائى يصير قصباناً
من الذهب والفضة ؟

فقال له : « أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطوا حشخاشة يشتغلون
بها ؟ » .

(١) التلخيص . ١٩ .

ويحتج هذه النصوص بقوله عن الرسول ﷺ - وقد سئل عن معنى قوله - ﷺ « إني لست كأحدكم ، إن ربي يطعمني ويسقيني » فقال :

« ما كان معه طعام ولا شراب ، ولكنه كان يذكر خصوصيته عند الله تعالى ، فيكون كمن أكل الطعام وشرب الشراب »
وما من شك في أن رأى سهل فيما سبق رأى موفق ، إنه يتلخص في :

١ - لا شك في أن الكرامات ثابتة بقدرة الله تعالى وواقعة لبعض الناس .

٢ - والكرامات في نفسها على الخصوص تشجيع للمستدئين في العروج إلى الله .

٣ - وأفضل الكرامات هي التحلي عن الأخلاق المدمومة ، والتحلي بالأخلاق الحميدة .

الفصل الثامن

متاثرات عن الطريق في الحكم والمواعظ والنصائح والتوجيهات

لسهل بن عبد الله مجموعة ضخمة فيما يتصل بإرشاد الناس في صورة موعظة أو حكمة أو توجيه أو نصيحة ، نذكر منها ما تيسر دون ترتيب معين ..

قال سهل : أيما عبد قام بشيء مما أمره الله به من أمر ديه فعمل به وتمسك به ، حاجت ما بهي الله تعالى عنه عبد فساد الأمور ، وعبد تشويش الرمان ، واختلاف الناس في الرأي والتفريق إلا جعله الله إماماً يقتدى به ، هادياً مهدياً قد أقام الدين في زمانه وأقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو العريف في زمانه . الذي قال رسول الله - ﷺ - « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل في شيء من السنة وكانت بيته متقدمة في دخوله لله إلا حرج الجاهل من سره شاء أو أبى بتقديمه إليه . ولا يعرف لجاهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم . سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا الحسن المحاسن جارياً ، يقول سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : الفترة عملة ، والحشية بقطة ، والقسوة موت .

وقال : الغضب أشد على البدن من المرض ، لأنه إذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه من المرض ، ولهذا قال المصطفى - ﷺ - : « لا تغضب » وكرره

وقال : ما أعرف معصية أقبح من سبيل الرب

وقال : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصر هالك .

وقال : ما عبد الله شيء أفضل من مخالفة الهوى .

وقال : مخالطة الفقير للناس ذل ، وبعده عنهم عز .

وقال :

الفتن ثلاثة : فتنة العامة من إصاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص ، والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق في وقت فيؤخروه .

وقال : الابتلاء كالمرض يمرض الواحد مائة مرة فلا يموت ، ويمرض آخر ساعة فيموت .

وقال عثمان بن محمد العثماني ، سمعت أبا بكر محمد بن يحيى بن أبي بدر يقول ، سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله ، يقول : الانقطاع من الشهوات : الخروج من الجهل إلى العلم ، ومن السبيل إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال . شيئان يذهبان خوف الله من قلب العبد . أصل الدعوى والمعصية ، وصاحب المعصية إذا خوفته واحتججت عليه بالإيمان ينفذ ويخضع وبقر بالحواف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ولا ينفذ

لخوف البتة ، ولا يوجد قلب أُخلى من الخير ولا أقصى ولا أبعد
من خوف الله من قلب المدعى

وقيل له : ما أغرب الأشياء ؟

قال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقال : اجنب صحة ثلاثة أوصاف . الجبارة العافلين ، والقرء
الدهابين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال : إن الله قال لآدم : أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير
فضلي ، وخاف غير عدلي ، لم يعرفني

وكان ، رضى الله عنه ، يقول :

من كمل إيمانه ، لم يخف من شيء سوى الله تعالى .

وسمعه يقول : لروم الباب طلب العبد إلى مولاه أن يشبهه على الإيمان
ويقبضه عليه .

فان : وسمعت سهل بن عبد الله ، يقول : من تحلى من الربوبية
وأفرد الله بها ، واعترف بالعبودية وعبد الله بها ، استحق من الله الملك
الأعظم في حياة الأبد ، ومن نارع الله ربوبيته قصمه الله ، ألا ترى
أنهم يحبون العسى ، والله هو العسى وهم المقراء ، ويحبون الأمر والنهي ،
والله تعالى يقول ﴿ لا إله إلا الله ﴾^(١) ، ويحبون القضاء ، والله
تعالى يقول ، ﴿ كل من عليها فان ﴾ ويحبون ربه ربه^(٢) ، ويحبون

(١) الأعراف . ٥٤

(٢) الرحمن ٢٦ + ٢٧

الدنيا والله يبغيضها ، ويريدونها والله لا يريدوها ، فهم يازعون الله الربوبية ويعادونه فيما أحب .

قال : أرهد الناس أصفاهم مطعمًا ، وأعبد الناس أشدهم اجتهدًا في القيام بالأمر والهي ، وأحبهم إلى الله أنصحهم لحلقه .

والطهارة على سبعة أوجه . طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من السيئان ، وطهارة الطاعة من المعصية ، وطهارة اليقين من الشك ، وطهارة العقل من الحمق ، وطهارة الطر من السميمة ، وطهارة الإيمان بما دونه .

وقال . فساد الدين بثلاث . الملوك إذا أخذوا في السرف والشهوات ، والعلماء إذا افتوا بالرحص ، والقراء إذا تعبدوا بغير علم ، وإن العلماء محتاج إليهم لخلق في الدنيا والآخرة .

وقال : قوام الدين والدنيا في ثلاث . العلم والأدب والمبادرة ، وهلاك الدين والدنيا في ثلاث . الجهل والخرق والكسل .

وقال : أربع من دعائم الدين : القيم بالحق على نفسك وغيرها والقيود عن باطل نفسك وغيرها ، والمودة لأهل طاعة الله والبغض لأهل معصيته .

ومى قوله تعالى : ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾^(١) قال . من أراد حفظ القرآن فليختم بثلاث ختمات على شرط :

(١) آل عمران : ١٩١

نختمه قائماً يصلي ، ونختمه قاعداً يدرس ، ونختمه مضطجماً على جنبه ، فإنه لا ينسى إن شاء الله عز وجل .

ومن اشتغل بطلب العلم بالتقوى ، وقراءة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، واتباع السنة ، واحتتاب اللهو ، لم تصبه الأمراض والأسقام .
ومن أطاع الله بالعلم وصدق النية لم يفقد عقله وقال :

ليس للعبد حية سوى أن يواظب في جميع عمره على قول . رب سلم سلم ، الأمان الأمان ، الغوث الغوث .

وإياك والتدبير فإنه داء النفس ، وعليك بالافتداء فإنه أساس العمل ، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه م تستنمه حتى تدخل النار ، وعليك بالقنوع والرضى ، فإن العيش فيهما ، وإياك والائتمار على غيرك فإنه لبسك فسك ، وعليك بالصمت فأنت تعرف الأحوال فيه ، وعليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا ، وعليك بسهر الليل تموت نفسك من ميالة طبعك برحمتي قلبك ، وإذا صليت فاجعلها وداعاً ، وخف الله يؤمنك ، وارجه يؤملك ، واتكل عليه يكفك ، وعليك بالحيوة تنقطع الآفات عنك .

ولقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . لولا محافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ .

وقال : ما من عبد أراد الله بعزم صحيح إلا زال عنه كل شيء دونه ، وما من عبد زال عنه كل شيء دونه إلا حق عليه أن يقوم بأمره ، وليس في الدنيا مطيع لله وهو يطيع نفسه ، ولا يتساعد أحد عن الله إلا بالاشتغال بغير الله ، وإنما تدخل الأشياء على الفارع ،

وأما من كان مشغولاً لقلب بالله م تصل إليه الوسوسة وهو في المريد أبداً واحفظ نفسك بالأصل ، فيل له : ما هو ؟ قال : التسييم لأمر الله ، والتبري ممن سواه .

وفي قوله تعالى ﴿وفديناه بدخ عظيم﴾^(١) قال . إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بضع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بدخه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الدخ ، وإنما كان المقصود تحليص السر من حب غيره بأبغ الأسباب ، فلما حلص السر له ورجع عن عادة الطبع فداه بدخ عظيم .

وفي قوله سبحانه . ﴿إن هذا هو البلاء المبين﴾^(٢) قال يعني بلاء رحمة ألا ترون كيف بعثه على الرضا .

وعن قوله تعالى ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾^(٣) قال : أي ممن دل على الله وعلى عبادته وسنة رسوله ﷺ ، واجتناب المأهى ، وإدامة الاستقامة مع الله ، والاستقامة به حقاً من الخاتمة ، وفي الطريقه الوسطى والجادة المستقيمة التي من سلكها سلم ، ومن تعداها دم .

من استعصى بغير الله فبما افتقر ، ومن اعتر بغيره فبعره دل ، ألا ترى أن الله يقول : ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾^(٤) .

(١) الصافات ١٠٧ .

(٢) البعات ١٠٦ .

(٣) فصلت ٣٣ .

(٤) الحاية : ١٩ .

وفي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الْعَمَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾^(١) قال . معرفة السر كنه في الفقر وهو سر الله ، وعلم انفق إلى الله تعالى تصحيح علم انسى بالله عز وجل والله سبحانه وتعالى أعلم .

وعر قوله تعالى ﴿وَالرَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾^(٢) قال : هي كلمة لا إله إلا الله فإنها رأس التقوى ، ثم قال حير الناس المسلمون ، وحير المسلمين المؤمنون ، وحير المؤمنين العلماء العاصون ، وحير العاملين الحائفون ، وحير الحائفين المحلصون المتقون الدين وصلوا إخلاصهم وتقواهم بالموت ، فإن مثله كمثل راكب السفينة بالبحر لا يدرى ينجو منه أم يغرق فيه ، واندس تم لهم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ بقوله ﴿وَالرَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ .

وفي قول الله سبحانه : ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِيَّيْكُمْ مِنْهُ يَدِيرُ مِيزَانَ﴾^(٣) .

قال : يعنى قفروا بما سوى الله إلى الله ، وفروا من العصية إلى الطاعة ، ومن لجهل إلى العلم ، ومن عدايه إلى رحمته ، ومن سحقته إلى رضوانه ، وقد قال النبي ﷺ - « أعود بك منك فهذا أيضا باب منه عظيم » .

وقال سهل : تربة المعاصي الأمل ، وبذرها . الحرص ، وماؤها الجهل ، وصاحبها الإصرار ، وتربة الطاعة المعرفة ، وبذرها اليقين ، وماؤها العزم ، وصاحبها السعيد الموص أموره إلى الله تعالى .

(١) محمد : ٣٨ .

(٢) الفتح : ٢٦ .

(٣) الداريات : ٥٠ .

وقال : لا يطلع على عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما اطلع عليه إلا ملعون .

وقال :

من علم أن الله قريب منه فقد عد عن كل ما سواه .

وقال :

دع التدبير والاختيار لله الواحد لقهار ، فإن تدبير الخلق لأنفسهم هو المكدر لعيشهم .

وقال : من اشتعل بما لا يعنيه نال العدو منه حاجته في يقظته ومسامه .

وقال سهل : الأمل أرض كل معصية ، والحرص بذر كل معصية ، والتسوية ماء كل معصية ، والندم أرض كل طاعة ، واليقين بذر كل طاعة ، والعمل ماء كل طاعة ، ويقدر ما تهدم من دنياك نسي لأحرتك ، ويقدر ما تحالف نفسك وهواك وشهوتك ترصى مولاك ويقدر ما تعرف عدوك وعداوته - يعنى إبليس - تعرف ربك

وقال وسمعت سهلاً يقول : إذا جئت الليل فلا تأمل النهار حتى تسلم ليلتك لك ، وتؤدى حق الله فيها ، وتنصح فيها لنفسك ، وإذا أصبحت فكذلك .

وقال : العرج كله فى تدبير الله لعاده .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول محالطة الولي للناس ذل ، وتفرد عنهم عز ، وقبما رأيت وليا لله عز وجل إلا مسرداً .

وكان ، يقول . من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو

عافل .

وكان يقول : قد أيس العلماء في رميا هذا من هذه الثلاث خصال .
ملازمة التوبة ، ومتابعة السنة ، وترك أذى الخلق .

وكان يقول العيش على أربعة أقسام : عيش الملائكة في الطاعة ،
وعيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في العلم ، وانتظار الوحي ،
وعيش الصديقين في الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالم أو جاهلاً زاهداً
كان أو عانداً في الأكل والشرب والضرورة للأنبياء عليهم الصلاة
والسلام ، والقوام للصديقين ، والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للنهائم .

وكان يقول : من سقم من أصل سقم من التجسس ، ومن سقم
من التجسس سقم من العيبة ، ومن سقم من العيبة سقم من الزور ،
ومن سقم من الزور سقم من البهتان .

وكان رضى الله عنه ، يقول : الله قبة الية ، والية قبة القلب ،
والقلب قبة البدن ، والبدن قبة الجوارح ، والجوارح قبة الدنيا .

وكان يقول لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يصرف جهه عن
النس ويحمل جهلهم ، ويترك ما في أيديهم ويبدل ما في يده لهم
وقال : لا يستحق الرجل الرياسة على الخلق إلا إن احتمل أداهم
ويذل لهم ما يله وزهد فيما يدهم .

وقال : دخلت امتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى
العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر

ومن كلامه رضى الله عنه : الناس يام فدا ماتوا شهوا ، وإذا
شبهوا بدموا ، وإذا بدموا لم تنفعهم الدماة .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول . ما طلعت شمس ولا غربت على
أهل الأرض إلا وهم جهال بالله ، إلا من يؤثر الله على نفسه وروجه
ودياه وآخرته ، وأدنى الأدب أن يقف عند الجهل ، وآخر الأدب
أن يقف عند الشبهة .

وكان يقول : إن الله مطلع على القلوب فى ساعات الليل والنهار ،
فأبما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلك عليه إبليس .

وقال سهل . لا تستصغر شيئا من الذنوب وإن قل فإنهم قالوا .
أربعة بعد الذنب أشد من الذنب ، الإصرار ، والاستبشار ،
والاستصغار ، والافتخار .

وقد قال ابن مسعود - رضى الله عنهما - : إن المؤمن يرى ذنوبه
كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الكافر يرى ذنوبه كذبيبة
وقعت عن أنفه فقال هكذا يده فطارت .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١) قال لما نزلت
هذه الآية خصب رسول الله - ﷺ فقال فى حقيقته !

« ألا وإن الدنيا عرض حاصر يأكل منه المر والفاجر ، ألا وإن الآخرة
أجل صادق يقضى فيها ملك قادر ، ألا وإن الحير كنه بخدافيره فى
الجنة ألا وإن الشر كله بخدافيره فى النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله
على حذر ، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره^(٢) .

(١) الزلزلة : ٧ .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إتمام التقوى أن يتقى الله عبده حتى يتقيه في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً : يكون حجاباً بينه وبين الحرام .

سمعت أبا الحسن بن جهميم يقول : حدثني طاهر بن الحسن ، قال : سمعت إبراهيم الرجي يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : ما أظهر عبد فقره إلى الله في وقت الدعاء في شيء يحل به إلا قال الله ملائكتك : لولا أنه لا يحمل كلامي لأجبه . ليك .

وقال : حرام على قلب أن يشم رائحة اليفين وفيه سكون إلى غير الله تعالى

وقال : إذا قام عيد بما يحب الله عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق .

سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن المنذر الهجيمي ، يقول ، قال سهل بن عبد الله : الحق كلهم بالله يأكلون ، وفي عبادته غيره يشركون .

وقال سهل : من دق الصراط عليه في الدنيا عرض عليه في الآخرة ، ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق له في الآخرة .

سمعت أبا الحسن يقول : سمعت محمد بن المنذر يقول سمعت سهل ابن عبد الله يقول وسأله رجل ، فقال يا أبا محمد إلى من تأمرني أن أجلس ؟ فقال له : إلى من تكلمك جوارحه لا من يكلمك لسانه

وقال : الخشية سر ، والخشوع علانية ، من خشعت جوارحه لم يقربه الشيطان ، قيل فما الخشوع ؟ قال : الوقوف بين يدي الله ، والصبر على ذلك .

قال : وكال الخشوع ، ترك الآثام في السر والعلانية .

يقول : كفى الله العباد دينهم ، فقال عز من قائل .

﴿أليس الله بكاف عبده﴾^(١) واستعبدهم بالآخرة ، فقال .

﴿وتزودوا فإن خير الزاد اتقوى﴾^(٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾^(٣) قال سهل :

أى أصددا ، فأكر الأصداد النفس الأمانة بالسوء ، المطلقة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله .

وقال : البلوى قسمان :

بلوى رحمة ، وبلوى عقوبة .

بلوى الرحمة ، تعث صاحبها على إظهار مقره وفاقته إليه تعالى ، وترك تدبير نفسه واختياره .

وبلوى العقوبة . يبعثه على اختيار نفسه وتسييرها .

وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال :

(١) الرمر ٣٦

(٢) البقرة ٩٧

(٣) البقرة ٢٢

أروى الأصغر أريكم الأعظم ، أسماء الله كلها عظيمة . أصدق
وخذ أى اسم شئت يفعل معك » .

وسئل كيف ينخلص العبد من خدعة نفسه وعدوه ؟ قال :
« يعرف فيما بينه وبين الله ، وبعد عرفان حاله فيما بينه وبين الله
يعرض نفسه على الكتاب والأثر ، ويقتدى فى الأشياء بالنسبة » .
وقال : « العصب أشد فى البدن من المرض : إذا عصب دخل عليه
من الإلثم أكثر مما يدخل عليه فى المرض » .

وقال : « الله معنا قريب إلينا ، فلا بد ما من أن نكون معه ، نوثره
ونطيعه ، فيكون إثارنا له صدقاً بعلمنا فيه » .

ويقول : « إن الله يطبع على أهل قرية أو بلد ، فيريد أن يقسم لهم
من نفسه قسمًا ، فلا يجد فى قلوب العلماء ولا فى قلوب الزهاد
موضعًا لتلك القسمة من نفسه ، فيمن عليهم أن يشعبهم بالتعب
عن نفسه » .

يقول الله تعالى . ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾^(١) فسل ما الدنيا ؟ فقال :

الدنيا كلها جهل إلا موضع العلم ، والعلم كله حجة إلا موضع
العمل به . والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، والإخلاص
لا يتم إلا بالنسبة ، ثم قال : ديارك نفسك ، فإد أقيتها فلا دنيا
لك .

وقال : « السرور بالله هو السرور ، والسرور بغيره هو الغرور » .

(١) التمام ٧٧٠ .

وكان يقول . « إذا خلا العبد من الدنيا وهرب من نفسه إلى الله وسقط من قلبه أثر الحلائق لم يعجه شيء ، ولم يسكن إلى شيء غير الله قط ، فأن الله مؤنس ومزديه وكائنه وحافظه وجيبه وأنيسه : إياه ياجي ، وله ياجي ، وله يادى ، وبه يستأنس ، وإليه يرغب ، وإليه يستريح .

قال الله جل ذكره :

طوبى من خلقتة معرفى ، ودعوته فأجابى ، وأمرته فأطاعنى ، ورقته فحمدنى ، وأعصيته فشكرنى ، وابتليته فصبر لى ، وعافيته فذكرنى ومدحنى » .

وقال : علق الله الإنسان على أربع طبائع : طبع الهائم ، وطبع الشياطين ، وطبع السحرة ، وطبع الأبناسه ، فمن طبع الهائم : البصن والفرح قال تعالى : ﴿ ذُرْهُمْ بِأَكْوَا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾^(١)

وطبع الشياطين : الدهو والعب والريه والتكاثر والتفاخر ، قوله تعالى :

﴿ لعب ولهو وريه وتفاخر بيبكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾^(٢) . ومن طبع السحرة المكر والخديعة :

﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾^(٣)

(١) الحجر : ٣٠

(٢) الحديد : ٢٠ .

(٣) الأنفال : ٣٠ .

﴿يَعَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(١) .

ومن طمع لأبالسة إبلاء والامتكبار ، قوله تعالى :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾^(٢) .

واستعبد الله العباد بالمسيح والتقديس والتحميد والشكر ، حتى
يسلموا من طمع الشياطين اللهب واللعب يقول في كتبه :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبَحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٤) .

ومن طمع السحرة استعبدتهم الله بالافتداء بالنسي - ﷺ - بالصبيحة ،
والرحمة ، والصدق ، والإصاف ، والتفصيل ، والاستعانة بالله والصبر
على ذلك إلى انتمات .

ومن طمع الأبالسة استعبدتهم الله بالدعاء والصراخ والتضرع
والالتحاء :

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٥) .

يسلم به العباد إذ يعتصمون به .

(١) النساء ١٤٢

(٢) البقرة . ٢٢

(٣) الأعراف : ٢٠٦

(٤) الأنبياء ٢٠

(٥) المرقاة ٧٧

وقوله ٠ ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾^(١) .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾^(٢) .

حتى يسلموا من طبع الأبالسة .

وكان يقول . أصل الدنيا الجهل ، وفرعها الأكل والشرب ،
والناس ، والطيب والنساء ، والمال والتفاخر والتكاثر ، وثمرتها
المعاصي وعقوبة المعاصي الإصرار ، وثمره الإصرار العقبة ، وثمره
العقبة الاستعزاء على الله .

وقال « البية اسم الأسامي ، والطاعات أسمى ، واسية الإحلاص ،
وكما يثبت حكم الظاهر بالفعل كذلك يثبت حكم السر بانية ، ومن
لا يعرف نيته لا يعرف ديه ، ومن صيع بيته فهو حيران ، ولا يلعب
العد حقيقة علم البية حتى يدخله الله في ديوان أهل الصدق ويكون
علما بعلم الكتاب وعلم الآثار وعلم الاقتداء » .

وبصبح سهل من يحيطون به فيقول هم : حققوا الحير بالفعل .

قيل له : وكيف لنا أن نحققه بالفعل ؟

قال : بحمسة أشياء ، لابد لكم منها :

أكل الحلال ، وليس الحلال ، وحفظ الحوارح ، وأداء الحقوق
كما أمرتم به ، وكف الأذى عن المسلمين ، كيلا يذهب بأعمالكم
نصاصا في القيامة ، ثم استعينوا على ذلك كله بالله حتى يتمها لكم

(١) آل عمران ١٠٣

(٢) آل عمران ١٠٢

قيل له . فكيف تصح للعبد هذه الأحوال ؟ قال

لا بد له من عشرة أشياء ، يدع منها حمسا ويتمسك بحمس :

يدع وسارس العدو ، ويتبع العقل فيما يزجره ، ويدع اهتمامه لأمر الدنيا ويتركها لأهلها ، ويهتّم بالآخرة ، ويعين أهلها ، ويدع اتّباعه الهوى ، ويتقى الله على كل حال ، ويترك المعصية ، ويشغل بالطاعة ، ويدع الجهل والإقامة عليه حتى يحكم عمله . ويطلب العلم ويعمل به .

ويقول سهل لا يكون العبد مقيماً على معصية إلا وجميع حسنه عزوجة بالهوى لا تحلص له حسنه ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتحلص من هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله .

وقال . أول ما ينبغي للعبد أن يتحقق به ثلاثة أخلاق وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المثوبة ، والرفق في كل شيء ، والحذر أن يمس في الهوى ، أو مع الهوى أو إلى الهوى .

ثم لا بد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها اكتساب العلم العالى الحلم ، والتواضع ، والإنصاف .

ثم لا بد له من ثلاثة أخر ، وفيها اكتساب المعرفة وأخلاق أهلها . السكينة ، والوقار ، والصيانة .

وقال من أخلاق الإسلام والإيمان : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والصبيحة ، وفيها أحكام العبد .

وقال أركان الدين أربعة . الصدق ، واليعين ، والرصا ، والحب .

علامة الصدق . الصبر ، وعلامة اليقين : النصيحة ، وعلامة الرضا
برك الحلاف . وعلامة الحب الإيثار ، والصبر يشهد للصدق
وقال : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصر
ندمان .

وقال سهل : لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن
فتش وبحث في أخلاق الإسلام ما حالك فيه حتى تسلم ويعظم قدره
في نفسك وعندك .

وكان يقول : إذا قام العد بما لله تعالى عليه ، لتحقيق على الله أن
يقوم بما كان العد قائماً به لنفسه وقال :

لا تفتش عن مساوئ الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن فتش عن
أخلاق الإسلام وما حالك فيه حتى يعظم قدره في نفسك ، وتجتهد
في التمسك بتلك الأخلاق .

وقال : « اعلم أن الله تعالى أمانة في سمعك وبصرك ولسانك
وفرجتك ، وطاهره ، وباطلك ، عرصها عليك ، فإن لم تحفظها خست ،
والله لا يحب الخائين »

وقال : انعصون يعيشون في رحمة العلم ، والمطيعون يعيشون في
رحمة القرب

وقال في تفسير قوله تعالى :

﴿ ومن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه
أحدًا ﴾ (١) قال « العمل الصالح ما كان خالياً عن الرياء مقيداً بالنسبة »

(١) الكهف : ١١٠ .

خاتمة

لقد أراد سهل أن يعود بفكرة العلم والعلماء إلى الجو الإيماني الصادق ، وحديثه عن العلم والعلماء يستأهل السحيل .

إن خيار الناس ، فيما يرى ، العلماء الحائثون ، وخيار الخائفين المخلصون الذين وصلوا لإحلاصهم بالموت ، رضى الله تعالى عنهم والعلم على الدين ليس أهواء ، ولا استدعاء ، ولا احتراعاً ، ولكه اتباع ، ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) قال :

العلم الكتاب والافتداء ، لا انحواطر المدمومة ، وكل علم لا يطبه العد من موضع الاقتداء صار وبالاً عليه ، لأنه يدعى به

ومنح الله ومواهبه كثيرة ، ولكن :

ما أعصى أحد شيئاً أفضل من علم يستريد به افتقاراً إلى الله .

ويتحدث سهل عن الإخلاص في لعلم وعن شكره فيقول :

الدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا لعمل به ، والعمل كله هباء متثور ، إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه أنت مه على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا .

أما شكر العلم والعمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، فهو أبداً هي
هذا وهذه حاله .

ويربط سهل رباط وثيق بين العلم والعمل فيقول بمناسبة قوله تعالى :
﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ (١) .

كل عالم أعطى علم الشر وليس هو مجاناً للشر فليس بعالم ، ومن
أعطى علم الطاعات وهو غير عامل بها فليس بعالم .

وكما للحمر سكر فإن للعلم سكرًا ؛ وقد دخل على سهل أبو حمزة
الصفوي فقال :

أين كنت يا أبا حمزة ؟ قال :

كنا عند فلان ، وأخبرنا أن السكر أربعة .

فقال : أعرضها على

فقال سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر
السلطنة ؛ فقال : وسكرتان لم يخرق بهما ، فقال : ما هما ؟

فقال : « سكر العالم إذا أحب الدنيا ، وسكر العابد إذا أحب أن
يشار إليه »

والعالم الرياني لا يخوض في دنيا الناس ؛ يقول سهل :

« وكل عالم حاص في الدنيا فلا يصح لكلامه بل يتهم فيما يقول ،
لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

(١) هرد : ٨٨ .

وهذا الاتجاه بالعلم إلى جو العظمة والعرة والإحلاص والتجريد هو
الاتجاه الصادق .

وسهل رضى الله عنه ما كان عالماً فحسب ، وإنما كان مصلحاً
للعلم .

أما من ناحية علمه فإنه يمثل الطابع العام لعلوم الصوفية :
إن العلم فى المجال الصوفى يدور حول القرآن الكريم والحديث
النبوى الشريف يدرسهما فى عمق ، وذلك ليأخذ منهما الأساس
الصادق للقدرة والتأسى .

إن الصوفى يرى فى رسول الله ﷺ الأسوة ، ويدرس كل ما يتصل
بحياته وبدعوته من كتب الأحاديث ، ومن كتب السيرة حتى يمكنه
أن يستجيب للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(١) .

أما القرآن لكريم فإنه نور الأنوار من اتصل به عن قرب مستجيباً
إلى هديه أشرق نوره فى نفسه وفى بصيرته ، وهبى إلى الصراط
المستقيم .

وسهل رضى الله عنه لا يمل من تردد ما بحث على الاقتداء ، وعلى
اتخاذ القرآن والسنة أساساً للسلوك والأخلاق وللتشريع وللعقيدة وللسير
إلى الله عن بصيرة .

(١) الأحزاب : ٢١

وإذا أخذ أساس الذين في قلوبهم زيج يحشون في متشابه القرآن
مما يتصل بالذات أو بالقدر والجبر والاحتير ، فإن سهلاً يوجه التيار
في رفق وحكمة إلى الهداية الحقة .

والهداية الحقة هي أن تسير إلى الله من باب الدلة والانكسار ، من
باب الحشوع والحصوع ، ... من باب القدوة والاتباع
ومن دراستنا لسهل نرى أنه .

درس واجتهد في التفسير وفي السيرة وانتهى إلى هذه الفائس في
التفسير وفي التوجيه على النسق النبوي .

وإذا كان العلم لا يطلب لذاته ، وإنما هو وسيلة تنتهي إلى العقيدة
الصادقة والخلق الكريم والسلوك المستقيم ولعمل والإخلاص في كل
ما يأتي الإنسان وما يدع ، فإن سهلاً انتهى من علمه إلى الثمر الصادقة
للعلم ، وكان مثلاً كريماً لمحقق الكريم

وانعلم والعمل هما لقدر المشترك بين الصوفية جميعهم تقريباً
وهذان العصور ظاهراً في حياة سهل رضى الله عنه
على أن الرسالة الكبرى للصوفية إنما هي الهداية إلى الله تعالى :
هداية الخيري ، وهداية الشاكيين ، وهداية العصاة ؛ إنهم يدعون إلى
الله على بصيرة ويدعون إليه بالحكمة والبرعة الحسة ، ويجادلون
بالتى هي أحسن ، إنهم يلعبون رسالات الله ويخشونه ولا يحشون
أحدًا إلا الله .

وهذه الرسالة هي رسالة رسول وحيييا محمد ﷺ ، وقام بها الخلاء
الراشدون من بعده والصحابية رضوان الله عليهم ، ولم تكن هناك إذ

ذاك تفرقة بين عالم الدين ، ورحل الدنيا ، فقد جمع الصحابة رضى الله عنهم بين علماء الدين ورجال الأعمال في رحدة واحدة مسجدة سخرت فيها جميع الأعمال لأن تكون في سبيل الله ، وكما كان رسول الله ﷺ قدوة كان الصحابة رضى الله عنهم قدوة .

وحينما أصبحت الخلافة ملكاً عصوداً حصص قوم في علوم الدين فكان : العلماء

ولقد أخلص العلماء وجههم لله ، لا يعمون من وراء ذلك مالأ ولا جاهاً ولا مداب فانية : إبهم لم يشركوا بالله أحداً في وجههم ، وكان المثل الكريم هؤلاء إنما هم الأئمة الفقهاء والأئمة المحدثون من أمثال : مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة وسفيان ثوري وعشرات آخرين .

كان هؤلاء يقومون على سلامة المجتمع في سلوكه وفي عقيدته وفي عبادته وكانوا يقومون بواجب النصح للرعية والراعي ، وكان الرعاية يتقبلون النصح أحياناً ويصيقلون به أخرى ، ولكن العلماء سواء أضايق الرعاية بهم أم استجابوا وكانوا يمشون في طريق الهداية لا يصرفهم عن ذلك صارف .

ولكن الحكام وقد تحلصوا هم من عبء الدعوة والهداية ، حيث قام بها العلماء أحدوا يستولون على هؤلاء العلماء تدريجياً عن طريق الوظائف والجاه ، وتدرج هذا شيئاً فشيئاً فقد بدأ صحاف النعوس يسيرون تح راية الحكام ليصيبوا من حطام الدنيا ، وأحدث الدائرة تتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبحت شاملة أو شبه شاملة .

وهنا ظهر في المجتمع طائفة الصوفية يقومون بما كان يقوم به الدعوة منذ بدء الإسلام .

إنهم أصبحوا حلفاء الرسول ﷺ في الدعوة ، وهؤلاء الحلفاء كانت شأنهم ، وكان ميلادهم مع نشأة الإسلام وميلاده إلا أنه لم يكن هناك كلمة - بالنسبة للدعاة - أشرف من كلمة الصحابة ، ثم كانت كلمة التابعين هي العلم الشريف لكل من تلاقى مع الصحابة : صحابة رسول الله ﷺ .

لقد ورد التصوف مع لإسلام ؛ والقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ كلها أعلام هداية في طريق لساكنين إلى الله سبحانه ، إنها أعلام هداية من حيث الأساس الذي يقوم عليه الطريق ، وأعلام هداية من حيث المعراج في السلوك ، وإذا تأملت في طريق الصوفية أو في غابات الطريق فستجد أنه يقوم على الإسلام ويسير على هداية .

وقام الصوفية بدورهم خير قيام فقد امتدى بهم الكثيرون وأسلم على أيديهم أقطار بأكمها ، والإسلام في أندونيسيا ، وفي هذه الأقطار البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية الأولى إنما هو من آثار الصوفية . إن لإسلام لم ينتشر بسيف ، وإنما انتشر بالدعوة باخسني ، وبالاقتناع ، وبالقنوة .

ولقد كان الصوفية سمعتهم الوقور ، وبالنور يشرق هي وجوههم ، وبالشفقة التي فرصت نفسها فيهم يمثلون الخلافة لرسول الله ﷺ خير تمثيل ، واهتدى بهم من أحب الله له اهداية وانصرف عنهم من لم يكتب الله له السعادة .

وهذه الرسالة لا ماص من أن تؤسس على العلم ، ومن هنا كان الصوفية معنيين بالعلم قرآنًا وسنة وسيرة فكان فيهم المفسرون وكان فيهم المخدنون ، وكانوا علماء هداة مرشدين

وسهل خير مثال هذا الجانب العلمي ، ولكنه مثال من مثات أو من ألوف كلهم على نسقه يسير في تيار الهداية مؤسسًا ذلك على العلم .

ولابد في الحياة من أناس تتوافر فيهم الثقة حتى يطمئن الناس إلى أن المثل الكريمة مازالت موجودة ، وأن الخير مازال باقيا ، وإلا شقى الناس بعدم الثقة بعضهم في بعض ، وإذا كانت النفس الأمانة بالسوء تهدم معاول من الشر الثقة في النفوس فإن النفوس التي اطمأنت إلى الله ورضى الله عنها ، وأحبت الله ، وأحبها الله تعيد بناء الثقة ، وتعمل على نشر المثل الكريمة بسوكها وسمتها ودعوتها .

وهذه المثل الكريمة ضروره للمجتمع ، والتصوف إذن ليس نرفًا وإنما هو ضرورة لا يستقيم مجتمع خير بدونها ، لأنه لا يستقيم مجتمع بدون الإيمان بأن الخير لم يزل موجودًا .

ومحاربة التصوف إنما هي محاربة للمجتمع ومحاربة بث الثقة في المجتمع .

ورضى الله عن الأعلام الهداة منذ ابتداء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ورضى الله عنهم في حمة الجند مأواهم ومستقرهم ، ورضى الله عنهم حينما يحقق واقعيا ما يقوله الرحمن الرحيم الودود :

﴿وجوه يومئذ ناضرة • إلى ربها ناظرة﴾^(١) .

وصلّى الله وسلّم وبارك على مشرق الهداية خير خلق الله وصفوته
من عباده الذى قال له الحكيم العليم :

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون
وجهه ، ولا تعدّ عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من
أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾^(٢) .

والذى قال له : ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب
العالمين • لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾^(٣) .

(١) القيامة : ٢٣ .

(٢) الكهف : ٢٨ .

(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

الفهرست

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| المقدمة | ٧ |
| الباب الأول - حياته وأراؤه | |
| الفصل الأول : حياته | ١٧ |
| الفصل الثاني : الزهد والورع | ٢٢ |
| الفصل الثالث : السياحة الدينية | ٢٥ |
| الفصل الرابع : كراماته | ٢٨ |
| الفصل الخامس : سهل ومجالات علم التوحيد | ٣٦ |
| الباب الثاني : الطريق | |
| الفصل الأول : الطريق في جوه المادى | ٤٧ |
| الفصل الثاني : الطريق في جو القدوة والتأسى | ٥٨ |
| الفصل الثالث : الطريق في جوه الأخلاقى | ٦٧ |
| الفصل الرابع : الطريق في جو التوبة | ٧٥ |
| الفصل الخامس : الطريق في جو الإخلاص | ٨٢ |
| الفصل السادس : الطريق في جو المعراج | ٨٩ |
| التقوى | ١٠١ |
| الذكر | ١٠٤ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| الحمد | ١٠٧ |
| الشكر | ١٠٩ |
| الصبر | ١١٤ |
| الولاية | ١١٨ |
| الحب لله | ١٢٣ |
| الفصل السابع : الطريق من زاوية الولاية والكرامات | ١٢٦ |
| الفصل الثامن : متناثرات عن الطريق في الحكيم والمواعظ والنصائح والتوجيهات | ١٣٣ |
| خاتمة | ١٥١ |

| | |
|----------------|--------------------|
| رقم الإيداع | ١٩٩٤ / ٧٧٢٧ |
| الترقيم الدولي | ISBN 977-02-4663-8 |

١ / ٩٣ / ٦١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

سهل بن عبد الله التستري

هذا الكتاب حلقة جديدة تسهم به دار المعارف مع
ما سبق من كتب في هذه المجموعة النفيسة لأعلام
التصوف الإسلامي .

إن شخصية سهل بن عبد الله التستري من الشخصيات
الخالدة .. فلم يكن له في وقته نظير في التقوى والورع
وتبذل الأخلاق .. لقد كان مصدر إشعاع روحي ،
وصاحب كرامات شهيرة ، ونال هذه المنزلة عن طريق
الاتباع لا الابتداع .. كان ، سهل ، في منهجه وتصوفه
مقتدياً بالكتاب والسنة ، فألهمه الله هذه الفتوحات
والإلهامات أو الإشارات الإلهية التي يدخر بها هذا الكتاب
النفيس .

٣١٤٦٩